البؤساء

لـ.. فيكتور هوجو

الجزء الثاني

عاصِفة تحت جمجمة
أو «فوْرة في النفس»

قدّمنا بين يدي القارئ ما كان من أمر «جان فلجان» منذ ابتذّ ذلك الغلامَ قطعتَهُ الفضيّة، وقد رأى كيف حال[1] هذا الرجلُ إلى رجل آخر، وكيف فعلت في نفسه كلماتُ العابد أفاعيلها فاختطفته إلى المعبود، وأخرجته من مِسْلاخ[2] الشِّرَّة[3] والضغينة وأسكنته في إهاب من الفضيلة.

بدأ في المبالغة في الاختفاء والتنكر، وثنّى ببيع تلك الآنية الفضيّة، ولم يُبق منها على غير الشّمعدانين[4]، ولعله أبقى عليهما ذِكْرَةً لذلك الصّنيع.

وجعل يَنسَلُّ في سِرّ[5] من الناس من قرية إلى قرية حتى مسح أرضَ فرنسا ودوّخ بها كلّ مكان، وألقى عصاهُ بقرية «منتراي سيرمير»، وأدرّ الله له أخلاف[6] الرزق فأثرى، ثم مكّنَ لنفسه حتى جعلها بمنْجاة من المطاردة.

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة في يقظة الضمير، فكان كلما بَضَعَ[7] الندمُ على ماضيه من فؤاده بَضْعَةً شعَرَ في نفسه بوفْر تلك السعادة، ولقد تكفّلَتْ حسناتُ الشطر الثاني من حياته بغسل حَوْبَات[8] الشطرِ الأول.

وكان رأسه مُضْطَرِبًا لفكرتين لا ثالثةَ لهما: أن يُخفىَ اسمه، وأن يَقفَ حياته على الفرار من المخلوق والرجوع إلى الخالق، وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجًا حتى حالتا إلى شيء واحد، أصبح له السلطانُ المطْلَقُ على إرادته فاستقرّتا في قَرَارَة نفسه وتناولتا ما وراء وِجْدَانه، فهما اللتان دَعَتَاهُ إلى الانزواء فلبى، وإلى البرّ فمضَى، وإلى التقشف فأطاع.

وَتمُرُّ به لمحاتٌ يقع فيها بينهما العراك؛ فتدفعه الأولى إلى أمر وتُثْنيه الثانيةُ عنه، ولكنَّهُ ما كان يُحْجمُ لِمحةً عن إيثارَ ثانيتهما على أولاهُما، فهو يؤثر الفَضيلة وإن جرّت إلى هتك ستر، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره في اختفاء أمرهُ.

ألم تَرَ إليه كيف غامر بنفسه يوم العجلة فأنقذ «فوشلفان» و«جافيرُ» يُلقِي عليه

(1) تحول. (2) جلد. (3) الشر. (4) فارسي معرب.
(5) أي خفاء.
(6) الثدي للمرأة والأطباء للكلبة والأخلاف للناقة. (7) قطع. (8) الحوبة: الذنب.

نظرات تكاد تخْرق شغاف قلبه؟ وكيف لَبِسَ الحداد على العابد وإن طارت حوله في ذلك الشبهات؟

فقد قام بنفسه أنّ أول فرض عليه إنما يجب القيامُ به لغير شخصه.

على أنه لم يَشْهَدْ مشهدًا لهذا العرَاكَ كان أشَدَّ هَوْلًا وأعظم مرَاسًا من ذلك الذي مَرّ به حين دخل عليه «جافير» ولَفَظَ أمامه ذلك الاسمَ الذي دَرَجَ في أثناء النّسيان فاضطربت له نفسُهُ من داخل الجلد، واسْتَخْذَى عند سماعه وعجب لذلك الجَدّ الذي لا يفارقه العثار، وهجم عليه أمْرٌ لا قِبَلَ له به، فمرت به تلك الهزّات التي تُؤْذِنُ بفَوْرَة النفس، فانحنى انحاء الدّوْحة تُدانيها العاصفة أو الجُنديّ يَتَهَيّأ للاقتحام.

وهّمَّ وهو يُنصت لـ«جافير» أن يطرح رداء التنكر ويطير إلى ذلك السجن الذي أودعوا فيه «جان ماتيو» فيقتلعَهُ منه ويَحُلَّ محلَّهُ، ولكنه لم يلبث أن عاودته الأَثَرَةُ فأكبر هذه النزعة النبيلة وتراجع أمام تلك البُطولة.

ولو كان ممّن تزكو[1] عنده العوارفُ لزَكَتْ عنده عارفة[2] العابد، ولغَيرتْ منه تلك السنُون التي طواها بين الزهد والتّوبة، ولغَبَر يمشي قُدُمًا بقدم مطمئنّة وصدر مثلوج إلى تلك الهاوية المفتوحة أمامهُ، فهناك عند قرارها قد أُلقيت مفاتيح الجنة التي كان يَنْشُدُهَا.

نعم كان الأَخْلَقُ به أن يكون ذلك الرجلَ، ولكن لم يكُنْهُ، وإليك ما كان يجول في نواحي نفسه.

غمَرَهُ عند الوهلة الأُولى شعورُ المحافظة على النفس، فخفّض من جزعه، وتصامّ[3] عن نداء ضميره، وأهاب[4] بحلمه حتى إذا ثاب إليه أضمر في نفسه وهو ينظر إلى «جافير» أن يتلوّم[5] بعض التلوّم في الحكم على مصيره.

ولبثَ سَراةَ[6] يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء، وفي باطنه من الجزَع صلاء[7]، فلم يفكّر في ذات غيبه[8]، ولا في الأخذ بالحيطة مما عسى أن ينزل به من العوادي.

ولا بدْع فقد تخَوّنه الحزم، وقَرَعه «جافير» بقارعة أطارتْ صوابَهُ وزلزلتْ أركانَ نفسه، وكان مبلغُ علمه بحالته أنه أصبح تحت كلْكَل كارثة لا يدري متى تُفْلته.

انكفأ إلى حجْرَة «فانتين» يعُودُها وجلس على مقربة من فراش آلامها وأطال

---

(1) تزكو: تزيد، والمعنى تحفظ الجمائل.
(2) زكت العارفة أي أثمر الجميل.
(3) أصابه الصمم فلم يعد يسمع نداء الضمير.
(4) صاح.
(5) يتأنى.
(6) طول.
(7) الطلاء: الهدوء، والصلاء: الشدة والنار.
(8) ذات الغيب أي المستقبل.

الجلوس، فقد كان عَلَى نيّة سفر لا يَعْرف أَمَده، عَلَى أَنها نيّةٌ مُبْهَمَةٌ لم يضرب فيها رأيًا ولم يستشر عزمًا، فقد مّرت به الفِكَر أبابيل[1]، وهو لفرط خبَاله لا يكاد يميز بين صُورهَا.

وما أدرى أكانت به نفسُهُ، أم كان به ذلك السجينُ أم تلك المحتضرةُ، أم وليدتُها المنبوذةُ بذلك النُّزُل، فكان يقول في نفسه: ما ضرني ألَّا أريم[2] مكاني فأرقب مواقعَ القضاء في هذا الحادث، وأنا وَادعٌ لا تسمع إليَّ الخطوبُ ولا تلتفت الظنون وهذه عجلة «سكوفير» تحت يدي فمتى أحسسْتُ الشّرّ ركبْت عليهت النجاة.

حضرَ بعد ذلك وقتُ طعامه، فأصابَ منه إصابةً مقَدّرةً، ثم دخل مَخْدَعَهُ وهو مذهُوبٌ به، فخلا إلى نفسه وأنعم التفكيرَ وجعل يقلّب وجوه الرأي فتَعاظمَهُ الأمرُ وأخذَتْ عليه أفواهُ السُبل وسُدَّت مسارحُ النجاة.

ساورَتْهُ المخاوفُ وفَاعَتْهُ[3] الأوهام، فقام إلى الباب فاستوثق منه إلى المزْلاج[4] فأثبته حتى ظنَّ أنه في مأمن من الطارق والطارئ، ثم أقام خلفه المتاريس طلبًا للمزيد في الأمن، وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن إلى النور، ثم قال في نفسه: ألا أزال مَرْئيًا «عن أي عين يا تُرى كان يريد أن يتوارى»؟

يا وَيله؛ إن ذلك الذي كان يَجِدُّ في الفرار منه، ويقيم في طريقه الحوائل، ويَستنجِدُ بالظلام مازال معه في حجرة واحدة ذلك هو ضميرهُ، وتلك هي عينه.

ولعله كان يعالج خُدْعة نفسه حين ظنّ أنه كان في عُزلة وأمن، وأن الباب والمزلاج يحولان بينه وبين ما يخشى.

فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صَار جَميعَ الفؤاد، ثم عَصَب رأسَهُ بيديه، واعتمد بمرفقيه عَلَى منْضدة كَانت أمامه، وأنشأ يحدث نفسه:

أين أنا؟ وما عسى أن يكون ما أنَا فيه؟ تُرى هل كَذَبتني العينُ حين رأَت «جافير»؟، وهل خانني السمعُ حين أفرغَ فيه اسم ذلك الرجل «جان متيو»؟ أتُراه يُشْبهني إلى حَدّ أنْ أخذوه بي، فويلٌ لي، لقد كنتُ بالأمس آمنًا في سربي وأرَاني اليوم في قلق لا أدري متى ينطوي أجلهُ!!

فانظر عَلَى أيّ سيّالٍ من الألم قد بات يتململ هذا البائسُ الذي ضاق مُحيطُ عقله عن جَوْلات تلك الأفكار التي تدافعت في رأسه كَالأمواج حتى إنه ليُدافعها عنه باليدين، وكَان يحاول أن ينتزع من كلّ أولئك يقينًا يَجِدُ له بَرْدًا عَلَى قلبه ولكنه لم

---

(1) جماعات.
(2) أبرح.
(3) فعلت فعل الأفعى.
(4) المزلاج: الأرجوحة.

ينتزع غَيْرَ الْحيرة والمضض. وَكَاد يلتهبُ رأْسُهُ فقام إلى النافذة ففتحها ونظر إلى السماء فإذا بها ضَريرةُ النجم[1]، ساقطة النواحي[2]، فعاد وارتمى عَلَى مقعده.

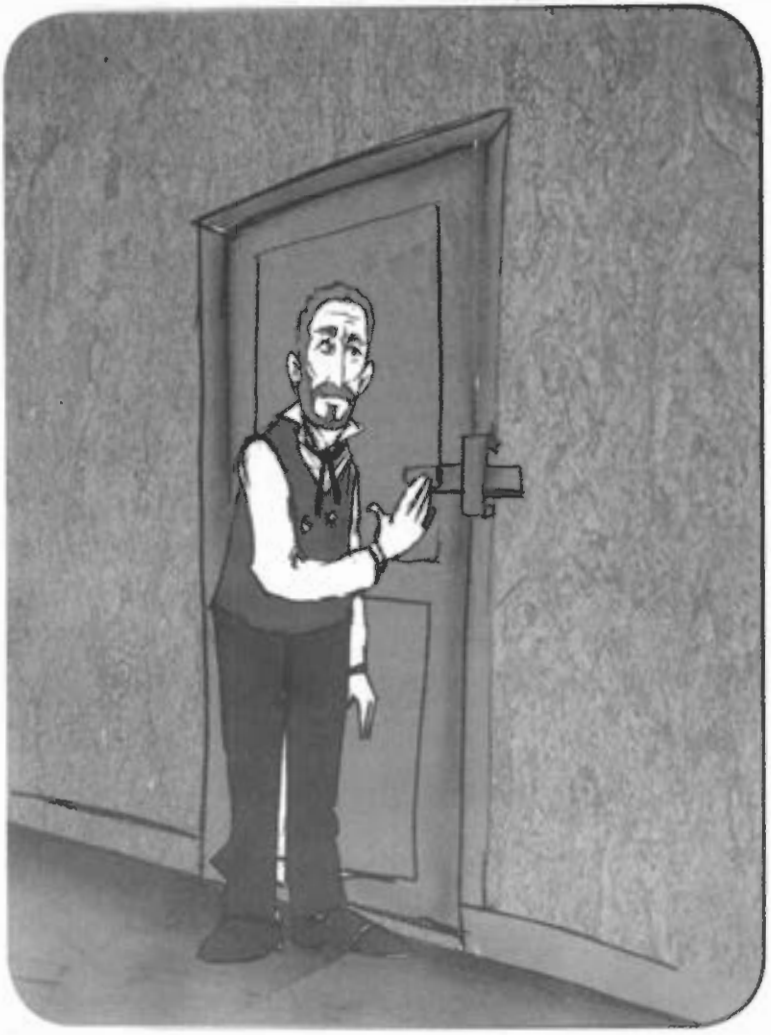

ومرَّ به قطْعٌ من الليل وهو عَلَى تلك الحال، ثم أَطافَتْ برأْسِه صُور مبهمةٌ أخذت تتجمع وتتبَيَّن حتى لَفَتَتْ إليها تأَمُّلَهُ فلمحها بعين الحقيقة لمحة ألَمَّتْ ببعض أطرافها فعاد إلى نفسه بعْضَ الشيء، وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التي نزل إليها إنما هي من صُنْع يده، حَالٌ حقيقة باللوم لا يلابسها المرئ[3]، ولا يستقر عليها العَيُوفُ.

(1) يحجبها السحاب.
(2) شديدة الظلمة.
(3) ذو المروءة.

ومن نظر في أمر هذا البائس، وَقَرَ في نفسه أنه عَلَى زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئًا مذكورًا اللَّهم إلا ذلك الثَّقْبَ الذي ثقبه ووأدَ فيه اسمه ووَدَّ لو نسجت عليه الأيَام طبقات من النسيان لا يَنْفُذُ إليها شعاعٌ من الذكرى.

فكان إذا خطر له أن سيأتي يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكرٌ نسف ذلك الخاطر نفسه في نهاره ونَزَفَ أنفاسه في ليله وأغرى به سُهادًا تُقَضُّ[1] عليه معه المضاجع وتَطَارحُه الوساوس، ولطالما كان يقول لنفسه: إن هذا اليومَ إذَا أوفى عليه لَيَذْهبنَّ بما يحيط به من راحة ونعيم، حتى إنه لَيُشْفِقُ أن يذهب بتلك النفس الجديدة التي رَبَّهَا[2] بالتقوى وتعهدها بالإحسان.

(1) تمتلئ عليه قضًا وقضيضًا أي حصى.

(2) ربها ورباها بمعنى واحد.

نعمْ لقد غمرَ هذا الفكرُ شعوره، وشغل أرجاء نفسه، فلو أن قائلًا قال له: إن هذا اليومَ لا بُدَّ آت، وإن تلك الكلمَةَ «جان فلجان» لابد أن تَثبَ من مكمنها وتترآى أمامك في هيكل نوْراني يهتك ستار الظلمة الذي أسْدَلْتَهُ عَلَى نفسك، فإذا جاءك هذا اليوم فلا تَبْتئسْ به، فلن يَضيرَك أن تَسمع ذلك الاسم فإنه سيرفعُ منك، ولا يهولنَّكَ أن ترى ذلك النور فإنه سيزيد في الظُّلمة التي تُنْشُدُها، ولا ذلك الستار الممزق فإنه سيكون أكْتَم لسرِّك، ولا ذلك الزلزال المروِّع فإنه سيصبح أدعَم لبنائك، فاكْشف عن حياتك تَبلُغ مناك من كتمان أمرك، وقفْ أمام طيف «جان فلجان» وقْفَةً تخرج منها أنبلَ نفسًا وأنبهَ ذكرًا وأجمل أمرًا.

لو أن قائلًا قال له ذلك لنأى عنه بجانبه، ولظن أنه يعالج المستحيل، عَلَى أن الذي كانَ يظنه داخلًا في باب الاستحالة قد دخل في باب الإمكان وجرت به الأقدار فوقع. أخذ حُلمُهُ يتكشَّف رويدًا رويدًا، وأخذ هو يزداد علمًا بحقيقة أمره.

خُيِّلَ إليه أنه قد أفاق من خَفْقَة - وما أدري من أي خفقة أفاق -، وأنه قد رأى نفسه ينزلق في جوف الليل عَلى منحدر عنه فأثبته الخوفُ وقيَّده الوهم، وأنه قد رأى تحت راية ذلك الليل خَلْقًا[1] أراد أن يتبيَّنه فتنكرت له معارفُهُ حتى أنكره، فألْقَى في رُوعه أنَّ الأقدار قد شُبِّهَ لها ذلك الخَلْقُ فظنته «جان فالجان»، فأخذته به وساقته ظلمًا إلى تلك الهاوية التي لم يكن لها بُدّ من أحد رجلين: إما هو، وإما ذلك المأخوذ به، فعجز عن المقاومة، وترك الأقدار تجري على أذلالها[2].

ولما تجلّى له نورُ الحقيقة أنشأ يصارح نفسه ويقول: إن مكاني في السجن لا يزال بحمد الله خاليًا يُطالعني منذ ذهبت بوَرقَة ذلك الغلام، وإني لأ شعر كَأَنَّ قوةً باطنَةً تسوقني إليه فهو مُدْركي وإن أمْعَنْتُ في الهَرب، ولَشَدَّ ما يُرْمِضُني[3] أن يقيموا فيه بديلًا مني، وإن هو إلا عاثر قد رَمى به نحس طالعه في أيديهم فأخذوه بي فأصبحتُ بفضل ذلك آمنًا في سربي، فأنا مقيم هناك في لباس «جان ماتيو»، وأنا مقيم هنا في لباس «مادلين»، ولكن أيَسَعني في مُرُوءتي أن أترك هذا البائس يُدْفَنُ في السجن كما تدفن التوابيتُ دفنًا لا قيام معه، ولكن تحت جنادل الخزي والعار، أم كيف يَجْمُل بي أن أتَدَلَّى هنا في النِّعم وهو يتدلَّى هناك في النِّقَم؟!

وعَلَى أثر ذلك تحركَتْ نفسُهُ حركة يقعد عنها الوصْفُ، حركةً لا تمر بنفس الحي في مدى حياته غير مرات معدودات، فقد اختلجت[4] سريرتُهُ اختلاجًا بَعَثَ ما كَانَ كامنًا في فؤاده من الهواجس.

---

(1) مخلوقًا. (2) أعنى تجري في أعنتها. (3) يقضي على الرمضاء.
(4) أخاف.

وَقَعَ ذلك على أثر مزيج قد جُمعَ في نفسه من الفَرَح واليأس والازدراء، تلك هي إحدى ضحكات السرائر.

قام بعد ذلك إلى المصباح فأضاءه من جديد، وطرح عن مَنْكِبَيْه رداء الفزع، فلما سكتَ عن الروّع قال لنفسه: مالي أراني على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه وكنت أفْرَقُ[1] من طريق واحد طالما قَدَّرَت أن تَدْهمَني منه الدواهي، ولكنه قدْ سُدَّ بحمد الله فأصبحَ «جافير» لا يجدُ إليَّ سبيلًا وأصبحْتُ في مأمَن من شر ذلك الرجل الذي رُكّبَتْ فيه غريزةُ كلْب الصيد، فكم وَقَفَتهُ عَلَى أثري حتى كادَ يكشف عن أمري - على أنها قد خانته هذه المرة فجرَّته على أثر غيري، فلينقلب على عقبيه، وليشتغل به عني، وليدعني أسْتَرْوح روائح الأمن، فقد طال عهدي بها، وليقبض على «جان فالجان» الجديد، وليبرح المدينة متى شاء، فكل أولئك لم أكن عنه مسؤلًا، فحسبي ما كابدت[2] من ألم وعانيتُ من جزع، فلو أن رائيًا رآني الساعة لما شكَّ في أني قريب عهد بالإفاقة مِّن سُقْم أو بالإفلات من براثن حادث!

وإذا تأنقت الأقدار في مكروه ذلك الإنسان فتلك مشيئتها، وأنَّى للمرء أن يدفع القدرَ عن غيره إذا هو أعجزه أن يدفعه عن نفسه، وإنّي لا أرَى مُبررًا لما كنتُ فيه من الجزع، فإن الأمل الذي كنت أتنسمه طِوال السنين، والشيءَ الذي كان يملأ عليَّ أحلامي قد ظفرتُ به.

ذلك هو الأمنُ وهو بغيتي، فما لي لا أشكر الله على تلك النعمة، فلعله قد ارتاح لي، وتقبل مني، وأراد أن أجري في طريقي، فقد أخذتُ نفسي بصحبة الفضيلة ورددتُها إلى التُّقى حتى قرَّت، ورُضتُها على البرّ حتى سكنت، فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فَنَفَضْتُ إليه جملةَ ما مرَّ بي فأفرغ في أذني كلمات وعيتُها حتى الموت؟ فلأمضين على هذا السَّنَن[3] فتلكَ مشيئةُ الله - صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خَلَجانُ سريرته، وبعد أن كادَ يستلُّ خيط نخاعه من طول ما سآءَل نفسَه وفكَّر.

لبث غير بعيد، ثم قام يتمشى في مَخْدَعه، وما شاع في نفسه سرور، ولا قَرَّ له قرار كما كَان يتوقع أن يكون، وما هي إلا بعض الخطوات حتى عاوده ما كَان فيه.

---

(1) الفرق: شدة الخوف.

(2) المكابدة: الشدة.

(3) السَّنَن: جمع سنة، وهي الطريق.

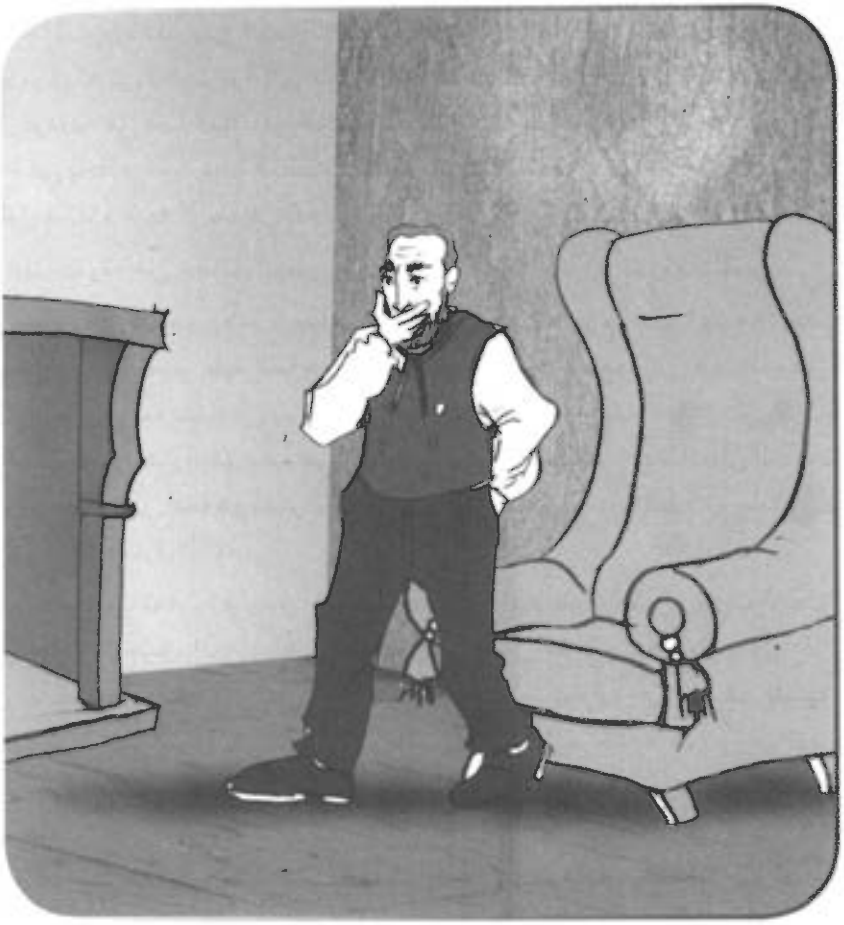

والفكر كالبحر، فمن استطاع أن يردَّ البحرَ عن العود إلى شاطئه، استطاعَ أن يردَّ الفكر عن العود إلى مَنَاطه، وعلّةُ البحر في ذلك يعرفها الملاح وهي المدّ والجزر وعلة الفكر يعرفها المذنبُ وهي الندم، فسبحان من يثير النفسَ كما يثيرُ البحرَ المحيط.

نعم عاد إلى ما كانَ فيه من حوارِ نفسه، فكان هو المناجي، وكان هو المُصْغي، وكم حاول ألّا يكونهما ولكنَّ قُوَّةَ باطنَةً ساقته سوقًا وألحَّتْ عليها بوحيها: أنْ فكّرْ في ذلك الذي سيقَ إلى الموت قبل اليوم بألفي سنة.

وقبل أن نجري بك شوطًا بعيدًا أيُّها القارئ، يجملُ بكَ أن تصبرَ قليلًا على الإسهاب في أمرٍ لم نر بدًّا من بَسْطِه.

من المألوف أن يناجي المرءِ نفسه، وليس بين أهل الفكر من لم يَطْعَم تلك المناجاة، وإنها لسرٌّ مِنْ أجمل الأسْرَار وأخفاها، ينتقل فيها الحديثُ من الفكر إلى السريرة، ثم ترده السريرة إلى الفكر، فإذا علمت هذا حَلالَك أن تفهم الأسلوب الذي طالَ ترديدهُ في هذا البابِ من قولنَا - ثم قالَ - ثم صاحَ - قال لنفسه - كلمَ نفسهُ - صاحَ في باطنه - وصيحةُ الباطنِ لا تقطعُ سكوتَ الظاهر، فقد تقع ضَجةٌ في الباطن يتناول الكلامَ فيها كلُّ ما في الجسم من عضو وجانحة غيرَ الفم.

تلك حقيقةٌ من حقائق النفس وإن لم يقع عليها الحسُّ أو يدركها اللمسُ.

تساءل أين هو من الأمر؟ وما عسى أن يكون ذلك العزم الذي اعتزمه؟ فأقرَّ في نفسه أن كلَّ ما أصر عليه إنما هو باطل، وأنَّ الاستسلام للقدر في هذا الموطن لَمِنْ إحدى الكُبَر! وكَبُرَ عليه أن يدع ذلك القدر في وهمه، وأولئك الناسَ في ضلالتهم، وهاله أن يجَمُدَ عن الحق وهُمْ في البُطْل يتدفقون. ورسخ في اعتقاده أن السكوت في مثل هذه المواطن إنما هو اشتراك في الإثم، وأن الإحجام عن المفاداة خليق أن ينزل به إلى أحط منازل الآثام.

منذ سنين ثمانٍ لم يذق ذلك المسكينُ طعم هذه المرارة، فتزلزلت نيَّته التي نواها، وجلس إلى نفسه يحاسبها وهو أقْسَى ما يكون، وجعل يقول: إن لكل حي غايةً يعمَل على إدراك مداها، وقد كانت لي غايةٌ أرى أنّي قد بلغتها فلم أخفق مَرَّةً في التنكر وخُدْعَة الشُّرْطة، ولكنها غاية خاوية من رُوح الفضيلة، أمِنْ أجلها يا ترى فعلتُ ما فعلتُ؟ لقد كان خيرًا لي أن أعمل على بلوغ المقصد الأسمى فأنْجُو بالروح لا بالجسد، وأنزل منازل الأبرار، فلن أعُقّ نفسي بعقوقي ذلك العابدَ، فما لي أفتحُ باب الماضي على مصراعيه، وقد أمرني العابد أن أوصده؟ فسوأةٌ لي. لقد أصبحت لصًا تتعوذ منه أبالسة الشطار[1]، فإنهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه، فكم من سليب قد نجا بِحُشاشته.

أمَّا أنا فقد سرقتُ من ذلك البائس وُجُودَهُ، وابتززت حياتَه، وسللتُ راحته، واغتصبتُ حتى مكانَهُ تحت الشمس، وما كانَ القاتل بِدُوني في قُبح الصنيع، على أني لم أحسن القتلة فهو اليوم في سجنه ميّت حيٌّ!!

ذلك لعمري أبشع ألوان الإجرام، فما لي لا أفتديه بنفسي فاسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت «جان فالجان» المجرم الأثيم.

فإذا طبْتُ بذلك نفسًا بُعثتُ بين الخلق من جديد، وخرجت من هذا الجحيم خروجًا لا يَعقُبُهُ رجوع، فإذا فررْتُ منه إلى السجن فإنما أفرُّ من جحيم الرُوح إلى

---

(1) الشطار: اللصوص.

جحيم الجسم، وشتّان ما بين العذابين، ولئن لم أفعل لأكونن من الخاسرين، وليس بمُغْنٍ عني ما قَدَّمته بين يدي آخرتي من عمل دنياي، إذا مَا عدل بي طبعي إلى الخَوَر[1] فحال بيني وبين ما اعتزمته. وهذا العابدُ ما فتئ أراه كأنَّهُ حيٌّ وكأنَّهُ مني أدنى[2] ظلام، يَنْهَبني بنظره نهبًا، وكأنَّهُ يؤثر أن يراني في لباس «جان فالجان» وإن كان من نسج الإجرام على أن يراني في لباس «مادلين» وإن كان من نسج التقوى، وإذا جاز على الناس تنكري فلن يجوز عليه.

فما نظروا إلا إلى الوجه وما نظر إلا إلى الضمير، فقد استحال إلَّا الذهابُ إلى «أراس» وإنقاذ ذلك المكذوب عليه، ولئن أقدمتُ على ذلك لأقْدمَنَّ على ما يُحجم عنه الناس. تلك هي المفادة وإن عَزَّت على النفس، وذلك هو النصر وإن كان أليمًا، فلنخطُ هذه الخطوة فقد شاء القدر ألَّا أكون نقيًّا في نظر الله حتى أكون دَنِسًا في نظر الناس. رفع عَقيرَتهُ بذلك وهو لا يشعر، ثم قام إلى كتبه فنسقها، وإلى وثائق ديون كَانَتْ لهُ على المعْسرين من التجار فألْقى بها في النار ثم كتابًا وغلَّفه.

ولو أن أحدًا كان معهُ في الحجرة لاستطاعَ أن يقرأ هذا العنوان «مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو»، وقامَ بعد ذلك إلَى خزانَة أسراره فأزعج منها دَرْجًا التقط منه محفظة. ولو رأيتَهُ على تلك الحال، وهو يعالجَ هذا العمل، وقد خرجَ به التأمل عن حدّ الشعور بما يحيط به لما خفي عليك ما كانَ يخفيه في قرارة نفسه، ولرأيتَ أنه كان يحرك شفتيه، وتارةً يرفعُ رأسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاول كشف سرّ أو استجلاء غامض.

ضَم إليه الكتابَ الذي كتبه، والمحفظةَ التي التقطها، وعاد إلى السير في مخدعه وفكره لم يبرح رأسه، ولم ينحرف عن مجراه، فكان كلما تنقّلَ ببصره رأى أمامَهُ لوحَ المقدور، وفيه سَطْرٌ قد خُطَّ بأحرف من النور: اذهب فأمطْ عنك اللثام وانتسبْ.

وعلى الأثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاكَ حياته، وقد سكنتا في هيكلين متباينين، أخذا يدنوان منه تحت الليل «وما نسي القارئ أن أولاهما لم تكن غير التَّنكر، وأن ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع إلى الخالق»، فجعل يقارن بينهما ويقيس ويقدّر حتى خَلَصَ إلى الحكم بأن الأولى إنما ركّبت من الأثَرة[3] وحب العاجلة[4] فهي إذن من وَحي الشيطان، وأن الثانية إنما صُوّرت من الاحتساب وحب الآجلة فهي إذن من وحي السماء، ورأى هذه وهي تنهض من الظلمة وتلك وهي تنبعث من النور، فَرُزق التمييزَ بين نزغة الشر ونزعة الخير.

---

(1) الخور، الضعف.
(2) أقرب.
(3) حب الذات.
(4) وحب الدنيا

ثم اشتبكتا أمامه في نزال، فجعل يفكر في أمرهما، وإنه لكذلك إذ نظر إليهما بعين عقله فإذا بهما قد أخذتا تربوان[1] وتعظمان حتى صارتا في تماثيل العماليق، وفي هذه اللمحة أحَسَّ في باطنه، وفي ذلك الملكوت النفسي الذي لا يُعرف مداهُ نضالا قد قام بين مَلك من الملائكة وشيطان من الشياطين وسط كتائبَ من الظلمة والنور، وكان يُؤَيَّد[2] إليه أنه في حراسة ذلك المَلَك فشدّ[3] منه أنْ رآه من الظاهرين[4]، ومَرَّ كأنَ لم يكن ذلك الجازع، وأيقن أن السريرةَ والقدر قد أوفيا على ساعة الإبرام في أمره.

فقال في نفسه: لقد أوضحَ العابدُ سبيلي في الطَّوْر الأول من حياتي الجديدة، وها هو ذا «جان ماتيو» يُوضِّحُه لي في طَوْرِهَا الأخير. وعاودته حُمَّى الفكر بعد أن هدأتْ هَدْأةً، فمرت برأسه ألْفُ فكرة وكلها تصيح به أن امْضِ في عزيمتك، ولكنه لم ينج في أثنائها من خَلْجَة شَكٍّ مَرَّت بنفسه، فقال أراني متعجلًا في الأمر، وما كان «جان ماتيو» ممن يُعتدُّ بهم إن هو إلا لصّ من السارقين.

ثم عاد فقال لنفسه: إذَا كان هذا الرجل من السَّرَقة كما يزعمون فإن عقابه لا يتعدّى عمر الشهر في السجن، فما له كُتبَ عليه أن يطوى فيه حياته؟ فلولا أنهم أخذوه بي، وحَلّ به شؤم اسمي الذي لبسه كَارهًا لما حشروه في زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين أو ثلاثا من شجرة لغيره، وما كان نائب الملك ليصنعَ به ما صنعَ لولا أن علم أن له سوالفَ غير محمودة وأنه يحمل ذلك الاسم الممقوت. ثم خطرَ له أن يذهبَ فيكشف عن نفسه لعلهم يُمهرُون هذه البطولة بالعفو عنه.

دع تقديرهم لحسن سيرته وما خلّف وراءه من الخيرات في هذا البلد.

ولكنَّ هذا الخاطر لم يلبث أن محتْهُ ابتسامةٌ مُرَّةٌ قد خَطَفَتْ على شفتيه فقد قال لنفسه على الأثر: إن قطعةَ الفضة التي انتزعتُهَا من ذلكَ الغلام انتزاعًا سَتُلْبِسُنِي ثوبَ المجرم العائد، وعقابي على ذلك لا يحتمل التأويلَ فهو سجن الأبد.

ثم نفض عنه غرور دنياه، وقطع ما بينه وبين الأرض، واتّجه إلى السماء يستنزل المعونة والعزاء، وقال: سبيلي أن أقومَ بالواجب فلستُ أتوقع شَرًّا مما أنا فيه، فهبني تركتُ الأقدارَ تجري على أذلالها، ولبثتُ في القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الأحدوثة التي أعلم دون غيري أنها متبَّلة بالجريمة، فأيُّ نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم إذا ما عَلقَتْ بها اللعنة، على أنني إذا طبْتُ نفسًا بالاحتساب، وقضيتُ العمر في السجن مقيدًا مغلولًا في لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب، بلغْتُ بذلك مرتبَة الرضي.

---

(1) تزيدان وتكبران. (2) يخيَّل. (3) قوّاه. (4) الغالبين.

وهذا أمر قد فَرَغَ منه القَدَرُ وما خُلِقْتُ لأنْقُضَ في الأَرضَ مَا أُبرِمَ في السماء.

فأنا اليوم بين أمرين: إمَّا فضيلة تحتها عار، وإما عار تحته فضيلة.

وتعاقبتْ عليه الأفكار، وأطافتْ به الهواجس، فما نهنهت من عزمه ولاكفَّتْ من غَرْبه، ولكنَّها كدَّت ذهنه وأفظعته بكرّاتها حتى وَهَي[1] عن احتمالها، فجعلت عروقه تطرق في صفحتي وجهه كالمطارق، وإنه لكذلك إذْ آذَنَتْ ساعة البَيْعة بانتصاف الليل، وأجابتها ساعةٌ بإحدى دور المدينة، فجعل يَعُدُّ الاثْنَتَي عشرة دقةً للساعتين، ويقارن بين جَرس[2] الجَرَسَيْن، فذكر على الأثَر أنه رأى عند أحد باعة الفلزّات[3] جرسًا عتيقًا معروضًا للبيع وعليه اسم «أنطون ألبين».

ثم أحسَّ البردَ فزاد في نار المدفأة، وغاب عنه أن يُغلق النافذة، ثم وقع في ذهوله من جديد، وحاول جهدَهُ أن يذكر ما كان يجول في نفسه قبل انتصاف الليل فغمرهُ النسيان، ولكنه لم يَنْشَبْ أنْ خرجَ منه إلى الذكر فقال: لقد ذكرتُ أني عقدت النية على الذهاب وإماطة اللثام. وخطرتْ له ذكرَى «فانتين» فلمحَ بين ظلمات هذه الهواجس وميضَ نورٍ لم يكن يتوقع رؤيته فتغيرت حوله وجوهُ المناظر.

وصاح: ويْلٌ لي؛ لقد أعماني حب الأثَرَة فلم أفكّر في غير نفسي، وأراني قد قَصَرتُ همّي على أمرين: إمَّا التنكّر وفيه نجاة الجسد، وإمَّا الظهور وفيه نجاة الروح.

ولقد خاصمتُ نفسي إلى نفسي فكنت قاضيًا قد جمع بين العزة والهُون، وكنت مجرمًا قد ضمَّ بين النُّبل والخسة. وهذا لعمر الله لون من ألوان الأثَرة، ولو ملتُ إلى الإيثار لبدأت بغيري. فهبني ذهبتُ اليوم، وكشفتُ عن نفسي فساقوني إلى السجن وخلّوا سبيل «جان ماتيو» فماذا يحَلُّ بعدي بهذا البلد الذي أغاثه الله بي فأقمتُ فيه المصانع، وأيقظتُ الصناعة، وشَيَّدْت دورًا للعاملين وأخرى للعاملات وكَفَلْتُ الأيتام، وحبستُ الأرزاق على الزَّمنَي[4]، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التّنُّور، واللحم من القدْر. فهم يستمدون مني حياتهم، وأنا محور تجارتهم وموئل عُفاتهم ومثابة أرزاقهم، وبي أخْصَبَ عيشُهم واخضَرَّت أعوادُهم ولم يكونوا من قبل شيئًا مذكورًا.

دعَ تلكَ البائسة المضعوفة التي أصبحت هامَةَ[5] اليوم أو غد بعد أن ابتَذَلَتْ خدْرَها وَهوت من سماء طُهْرها، وأنا الذي أخْرَجها عن أفق العفة وكنتُ أذْنًا للسعاية بها، فطرحتها من المصنعَ حين لا موئل ولا عائل، فأكلَتْ بثدييها وكنتُ لها من الظالمين.

---

(1) ضَعُفَ. (2) الجرس صوت يجرس.

(3) الخردوات أوما ينفيه الكثير من خبث الحديد.

(4) محل. (5) يقال فلان أصبح هامة اليوم أو غد أي حضر حينه.

وتلك الطفلة المنبوذة، وقد عاهدتُ الأمّ على نجاتها، فما أصنع بعهدي معها إذا نزحْتُ اليوم فماتت الأم وأصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق، يقذف بها القدر فَتَلَقَّفُها الغيرُ، فلننظر ما ينجم من الضرر في حالتي اللبث والذهاب.

ثم وقفَ عند هذه النظرة فعراهُ ضرب من الحيرة أعقبتهُ رعدةٌ مَرَّتْ كأن لم تكن، فتمكن من نفسه وقال: ليذهَبْ ذلك الرجل إلى السجن فقد سرق، ومالي أحسنُ به الظن فأدفعُ عنه الإثم، فلأمكثن هنا وأثَمّرُ هذا المال، فإذا أحسنتُ عليه القيام ولدَلي في مدى عشر سنين ألفَيْ ألف أنفقُها في وجوه البرّ، وليس بي أن أعمل لنفسي فلستُ ممن يتَربّحون في الجميل، فإذا استبحر البلدُ وماج بأهله ولدتْ القرية مَدينَةً، وولدت الدسكرة[1] قرية، وأطلع العَرَاءُ ضيعة،[2] فتَحْيَا الصناعة وتنمو المصانع، وتكثرُ المناسج، وتسْعَدُ الأسَر، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام، فلا قتلَ ولا سَرقة، ولا فسقَ ولا فجور، وتَنعَمُ تلك البائسةُ بقرب طفلتها.

لقد كنتُ مُحَمقًا حين قطعْتُ بالسفر، وما كانت آفتي في ذلك إلا الأثَرةُ، ولو أنني ذكَرْتُ غيري لما هممتُ بركوب ذلك الخطر، وإنها لضَلَّةٌ قد ثَنَي الله عنها عناني.

أأستحيي نفسًا أثيمةً وأميت أنفس زكيّة وأتوقعُ على هذ أجرًا!!

بَسْلٌ[3] عليَّ أن تموتَ «فانتين» وهي على ظمإ إلى رؤية طفلتها، وأن تهلكَ الطفلة ولا تعرفُ لها أمًّا.

كل ذلك من أجل مجرم لا أراه إلا خليقًا بما حلَّ به من العقاب، ولا أحسبُ إلا أنه ربّ سوالفَ في السوء، فلا يضيرُه أن يقطع المرحلة الأخيرة من عمره سجينًا كان أو طليقًا. ولو أن لتلك الطفلة كافلًا غيري لما حَزَبَني الأمر، فإذا أجرمتُ باللّبث هُهنا فعَلَيَّ إجرامي، وإن هي إلا غمزاتٌ من النّدم أجدُ لها مسًّا في الفؤاد، فلأصبرنّ على سعيرها ففيه نعيمٌ لأناس ليس لهم دوني من وليّ، وها أنذا وطّنتُ النفسَ على عيشٍ ظاهُره الرحمةُ وباطِنهُ العذاب، ذلك هو عين الاحتساب.

ثم طفَقَ يمشي في مخدعه وقد تبسَّطتْ في هذه المرة نفسُه، ورضي عن عُقْباه، وشَحذ عَزيمَتَهُ على المُضيّ فيما رَسَمه.

إنما تُلْتَمَسُ الحقائقُ في دياجير أغوار الفكر، فمثلَها كحجر الماس لا يُلتقط إلا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل - خُيّلَ إليه أنه هبط إلى تلك الأغوار فسلكَ في أشَدّها حلوكةً وأبعَدها مَدًى، ثم جعل يتحسّسُ بيَدَيه في تلك الدُّجيَةِ[4] حتى ظفرَ بحجر من ذلك الماس، أو بحقيقةٍ من تلك الحقائق، وإنه ليَقْبِضُ عَليه إذ

(1) أي الأرض المزروعة أو الأفدنة.

(2) المعروفة بكلمة عزبة.

(3) أي، حرام.

(4) مفرد دجى.

تفجَّرَ منه نورٌ كَاد يُعشِي بَصَرَهُ، فصاح ها أنذا قد وجدتُها وها هو ذا في يدي مفتاح طلسَمِهَا. فأنا «مدلين» وسأكونه ما حييت، فلا يسرُّني أن أكون «جان فالجان» ومالي أَقولُ «جان فالجان»، وأنا لا أعرف خَلْقًا قد ركِّبَ عليه هذا الاسم، فإن كان حيًّا كما يزعمون فليتولَّ أمر نفسه، ولا أحسب هذا الاسم إلا طائرَ شؤم له سبحاتٌ تحت الليل، فإذا عَنّ له رأسٌ قد انتواه القَدَرُ وقف فوقه فاضطرب ثم انقضَّ عليه فطاح به.

ثم نظر في مِرْآةٍ له صغيرة وقال: لقد رَفَّهَتْ عني هذه العزيمة فصرت بعْدَها غيري قبلها.

ثم خَطا خطوات ووقف يخاطب نفسه: لتَصْنَع العواقبُ صُنعها فقد قُضي الأمر واستحال غير الإقدام، على أني لا أزال أرى آصِرَةً من الولد تربطني بهذا الاسم فمن الكَيْس قطعُها، وأشياءَ في هذا المخدع ربما وَقَفَتْهُم على أثري ومهّدت السبيل للشك في أمري، وهُنَّ وإن كُنَّ صوامتَ فإنهنَّ أفصَحُ عندَ الشهادة لسانًا من الناطقين، فمن خطل الرأي أن أبْقي عليهن.

ثم ضربَ بيده إلى جيبه فأخرج كيسًا التقط منه مفتاحًا أولَجهُ في ثَقْب قُفْل لا يكاد يُرى لدقّته، فَلَكم خدعَ مكانه عينَ الناظر لكُمونه بين خطوط دَكناءَ رُسمَتْ متناسبةَ الأوضَاعَ على ورق كُسيَ به الحائط، فانفرجَ الحائط عن مَخْبأ كانت تواريه مرآة مُضَلِّلَةٌ نُصِبَت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرفَ عينَ الناظر، وكان

في ذلك المخبإ أهدامٌ بالية ومعطف أزرق وسراويل[1] رَثٌّ وَجِرابٌ عتيق وعصا غليظةٌ مُقَمّعة بالحديد.

ذلك هو متاعه الذي كان يحمله يوم مرّ بمدينة «دني» سنة 1815، وكان يُخفيه عن نظره هربًا من ذكرى السجن، ويُظهر الشمعدانين حبًّا في ذكري العابد. ثم رمى البابَ بنظرة عَجْلي كأنه يَخشى الغِرَة رغم الوثوق من الإيصاد[2]، وأهْوَى كاللمح على ذلك المتاع دون أن يُسْعده بنظرة منه فاحتضنه وألْقَى به في النار، ذلك المتاعُ الذي طالما قَدّسه ولم يبال الخطر في الإبقاء عليه.

وما هي إلا لمحةٌ حتى أشرقَ المكانُ بنور أحمر رَقَصَتْ أشعتُه على الْجدار الذي يُسامته، فعلم أنَّ النار قد أتت على متاعه إلا عصاه فقد بقي فيه ذِماء[3] دَلَّ عليه شَرَرٌ كانت لا تزال ترمي به إلى وسط الحجرة.

وسَطَع ريحُ الجراب وهو يحترق بما فيه من الْخُلقان، وظهرَ على أثره في المَوْقد شيءٌ لَمَّاع لو دانَيْتَه لَرأيت أنه لم يكن غير تلك القطعة الفضيّة- قطعة الغلامَ «سافويار»، ووقع نظرُه على الشمعدانين، وقد أضاءَتْهُما النارُ فانعكس لهما على الموْقد، ما أدْري أيُّ لون من ألوان الأشعة، فصاح وهاذان أيضًا لا معناة[4] للإبقاء عليهما ثم ألحقهما بمتاعه فلم يلْبَثا أن صُهِرا وحالا إلى سبيكة مُنكرة - ثم خطا إلى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلًا وتنفس وقال: نعم الدفءُ.

ولم يكد يَحْمَدُ مَغَبَّة أمره حتى شَعر كأنّ صوتًا في داخله يصيح به: «جان فالجان»، «جان فالجان»، فقفَّ[5] شعرُ رأسه واستُطير فؤادُه، وكان كمن يَسمعُ صوتَ الوَيْل، ثم أخذ يتسمَّع وإذا به يناديه: هنيئًا لك لقَدْ أكملت صنعك - أتلفت الشمعدَانين - نجوتَ من ألمِ الذكرى - نسيت العابد - نسيتَ معه الماضي - سُقت «جان ماتيو» إلى الهلاك - هنيئًا لك لقد نجوتَ - فكن شيخًا وقورًا ودع اسمك يحمل البلاء إلى غيرك فيمضي فِدَاءً لك - كن عريض الجاه خِصْبَ الفِناء، عُلْ من شئت من الناس، واكفُل من شئتَ من الأيتام.

ولا تنس وأنت مستقرٌ في الذروة من الجاه ومتَدَلّ في الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذي يلْبس في السجن لباسَك، ويخْطرُ في قيودك وأغلالك، فَلْيهنئْكَ ما قدمت يداك. فتفصَّدَ جبينه عرقا، ووقف ساهمَ الوجه، سادرَ البصر قد شُدَّتْ أهدابهُ إلى بقايا الشمعدانين، كل ذلك والصوتُ لا ينقطعُ عن مناداته «جان فالجان» إنك لا تعدمَ

---

(1) جمع سروال.

(2) الايصاد: الإغلاق.

(3) بقية حياة.

(4) يقال معنى الشيء ومعناته ومعنيه.

(5) قف شعر رأسه أي وقف.

أن ترى حولك قنابل[1] من الناس ترتفعُ أصواتُهم بالدعاء لك والثناء عليك، فلا تَنْسَ وأنت في مَظْهَرِ سُلطانك ذلك الصوتَ الخفيَّ الذي لا يحجبه عن سمع الله حجاب، واتقِ دعوةً تَنهَضُ من ظلمة السجن إلى جوانب العرش فتجُبُّ في طريقها دعواتهم، وتقطع عليها سبيل العروج إلى السماء، فتمسي ومالك غيرُ اللعنة من خلاق[2] ولبئس عُقبى الدار. وأخذ ذلك الصوت الذي كان يُحدِّثه كالهامس في أذنه يعلو ويعظم حتى صار له دَويٌّ كاد يَفتق طَبْلَتي مَسْمَعَيْه، وبعد أن كان يشعر أنه صوتٌ من أصوات الضمير قام بنفسه أن الذي يُكلمه لم يكن غيرَ حيّ من الأحياء تَحتويه الحجرةُ فرمَى بصَرَهُ يطلبُه في أركانها وصاح وهو لا يعي: من المتكلم، ثم ضَحك ضَحكَةَ مَنْ به مَسٌّ – وقال: لَشَدَّ ما وَهِمْتُ فليس هنا غيري.

وما كانت الحجرة خالية كما كَذَبَ نَفْسَهُ، ولكنَّ الذي كان فيها لم يكن ممن تَقَعُ عليه العيون، ثم عاوَد المشي بخُطى رَتيبة[3] تبعث الأسى وتثير الشجَن فكانت تقطع عليه سلك التفكير، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غِرارَه[4] فيثب من فراشه مروَّعا مذعورًا.[5]

على أن هذا المشي كان يُروّح عنه ويُثْمِله في آن، وقد تَدفعُ الملماتُ صاحبَها إلى الحركة رجاءَ أن يُصيب في طريقهِ من يَشُدُّ منه برأي أو يُنَفِّسُ عنه بنُصْح.

وأجازت به آونةٌ نَكرَ فيها نفسه ومكانَه، ثم نبّهه فزع مَلأَ جوانب صدره، فتراجع مخذولاً أمام كلتا العزيمتين اللتين اعتزمهما وبدا له قُبْحُ ما أضْمَر، فأيقن أن لا خير في الأولى ولا أجرَ في الثانية، وقال: ما أشأم هذا الاتفاقَ الذي رمى «بجان ماتيو» بين أيديهم فأخذوه بي وأنْظَرني ههنا حتى مكَّنتُ لنفسي فَمَلَكتُ يومي وبلغتُ من الثروة ما بلغت، ثم التفتتْ نفسُه التفاتةً إلى حاضره وأخرى إلى ماضيه وقال: «اكشفْ عن نفسي»، قالها ونفسُه تكاد تسيل جزعًا.

فسلام على عيش لَبستهُ مُضطرًا وخلعتُهُ كارهًا، فلقد آن للنفس أن تودّع ما هي فيه، فتستبدل[6] الإذلالَ بالإجلال، والضيقَ بالسّعة، والنصَبَ بالدَّعة،وللعين أن تستبدل عُبوس السَّجان ببسمات الشكر عند الإحسان، وللأذن أن تستبدل رنَّات السلاسل بتغريد البلابل عند إقبال الربيع في وشيه البديع، وللرّجْلِ أن تستبدلَ الحَجْلَ في

---

(1) جماعات. (2) أي نصيب.

(3) الشيء الرتيب هو الذي يقع متشابهًا على وتيرة واحدة.

(4) الغرار النوم القليل. (5) الروْع، شدة الخوف.

(6) يقال استبدل الطربوش بالعمامة إذا أراد ترك العمامة فالباء تدخل دائمًا على المتروك قال الله تعالى، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

القيود بالتنقل بين المروج[1] والنجود[2]، وللأنف أن يستبدل ريح صدإ الحديد بأريج الزهرات والورود، وللجَنْب أن تستبدل خشونةَ المضاجع بلين فراش المخَادِع، وواهًا من وحشة سجن الوَحْدَة والتقلّب في ألوان الشدّة، وفي ذمَة الله أيَّتها الدارَ فما كان أخْصَبَ أيّامَك وأقْصَر أعوامَك، وأنت أيَّتُها الخادم العجوز فما كان أيمنَ صباحَك وأبْرك صلاحَك، وقد آن لي وأنا العاثر المجدود أن أستدبرَ عيْشًا أخضر، لأستقبل عيشًا أغبر، وألْبسَ رداء أحمر، نَسَجَتْه يد البلاء الأكبر، وخَاطَهُ الشقاء لمنَ يسوقه القضاء، اللهم غَفْرًا، أفي مثل هذه السنّ وقد نَيّفْتُ علي الخمسين أرَدُّ إلى السجن وأنا أعلمُ الناس بما فيه من عذاب وهُون؟ ألَا أنّي لو كنتُ في عهد الشباب لاضطلَعْتُ بخَطْبه، أمّا وقد أخذت مني الأيامُ فلا طوق لي على مُصَابَرة الشدائد.

يَنْهَرُني الحرسُ، أخاطَبُ[3] بالكاف، تأخذني سياط السجانين، دع عصا كبيرهم، أمْسي عَارِي القدمين في حذَاء من الحديد، أمرُّ ساقي لمطرقة القَيْن الكشاف في الصَباح والمساء ليَبْلوَ قيودَها ويمتحن أغلالها، أصبح هدفًا لأعين الزوَّار فكلما مرّ بي أحدهم قالوا: هذا هو «جان فالجان» الشهير الذي كان شيخًا «لمنتراي سيرمير»!

فإذا جاء الليل عادوا بنا إلى السجن ونحن نَسْبَحُ في غدران من العَرَقِ وقد كَدَّنا المُوَكّلُون بعذابنا، فندخلُ اثنين اثنين بين أيْدٍ تعملُ في أقفيتنا وسياط تقدح في ظهورنا، فما أمَرَّها من حياة، إني أكاد أتهم القدر، أتراه تجرَّد من الروحانية وانغمسَ في البشريّة فحلَّ في هيكلٍ[4] شرير حَضَرتْ في استنباط الأذى قريحتُه، وأقفرٍ من الرحمة فؤاده. ثم رجع إلى هواجسه الأولى، ووقف عند تلك العقدة التي أعياه حلها.

أيقيمُ هنا فيصبح شيطانًا أحَلّته الجَنَّةُ؟ أم يذهب إلى هناك فيصبح مَلكًا أحَلَّهُ السَّعير؟

فتأوهَ، وقالَ: ربي كيف الخلاصُ، ثم اكتنفَ نفسه العذاب، وشاع فيه الألم وأخذ فكره يختلط عليه، فمر به ما أدري أيُّ صنوف البلَه، ولعلّه أثرٌ من آثار مواقع اليأس في النفوس، وذكر وهو فيما هو فيه كلمةَ «رومان فَيل» فقال: تُرى متى سمعتُ هذه الكلمة؟ سَمعتُها منذ عهد بعيد في أغْنيَة صغيرة تقعُ في بيتين من الشعر، وإني لأحسبُ «رومان فيل» اسمًا لغاب صغير بضاحيةٍ من ضواحي باريس يؤمه العشاق من الشباب في شهر أبريل، يجنون زهرات الزنبق. وسرَى اضطرابٌ باطنه إلى ظاهره فجعلَ

---

(1) في هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا إليها حسن المقابلة في المعاني واطراد القول.

(2) جمع نجد أي المرتفع من الأرض. (3) علامة الاحتقار. (4) منظر وشكل.

يترنح في مشْيته كأنهُ وليدٌ قد خرجَ من الحَبْو إلى المشي، فتُركَ يمشي وَحْدَه فهو لا يكاد يتماسَكُ، فجعل يكافحُ أشدَّ الكفاح ليثوبَ إليه رشدهُ ويخرج من ذلك البله، حتى إذا تمكن من نفسه أو كاد، أرادَ أن يعزم العزمة الأخيرة، إما الكشْفُ عن نفسه، وإما السكوت على حاله، ولكنَّه لم يُرْزق التمييز. وطاحتْ هواجسُه بثمرات فكْره، وأخذت تصوراته المبهمة تضطربُ أمامهُ ثم تحولتْ بالتعاقب إلى دُخان تذهب به الرياح، فأحس أنه أنَّى وقف أو وَقَفَتْهُ الضرورةُ فإن بضْعةً منه هالكةٌ لا محالة، فعليه أن يَشْهَدَ إما احتضارَ سعادته وإمّا احتضار فضيلته، وعاود التردد فعاد إلى موقفه الأوَّل. هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيَّال من الكرب والبلاء.

قبل عهد هذا البائس بثمان عشرة مائةً من السنين، هناك عند تلك الزيتونةالمباركة التي كانت تعبث بها هُوجُ[1] رياح الأبد- وتحت ذلك الفلك الحالي بالكواكب - كان ذلك السِّرُّ الغامضُ الذي أعجز العقول إدراكُ كنهه- ذلك الذي حل في صورة قد رُكّبت من الكمال والهُدَى، ومن آلام هذا الورى- يَعَافُ هو أيضًا شرب الكأس المرهوبة التي طالما نحَّاها عنه بيده كلما خالها تفيضُ بكسَفٍ من ظلمات، تسلسلت منها ظِلالٌ تجزع عند وِرْدِها النفوس.

أَلْوَانُ الألَمَ في النَّوْمَ

أقبلَ السحرُ وهو لا يزالُ يمشي في حجرته فاستشعرَ التعَبَ، فلقدْ مرت به خمس ساعات في التعاقب لم يُنَفّسْ فيها عن نفسه ارتمى على مقعد، وما هو إلا أن احتواه حتى غَطَّ في النوم، وسنحت له رؤيا شبيهةٌ بتلكِ الرُّؤى التي تُمثّل للمهموم في نومه ما كان عليه في يقظته، مغاليةً في تلوين وجوه الألم، ولقد نال منه هذا الحُلُمُ ما لم تَنَلْهُ اليقظةُ، فلم يكد يُفيقُ حتى خط بيده ما كانَ مركوزًا في نفسه من وَحي ذلك الكابوس.

وليس من الأمانة أن نمرّ به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتر - ونحن مثبتوه هنا لم نخرِم منه حرفًا.

---

(1) جمع هوجاء وهي الرياح الشديدة.

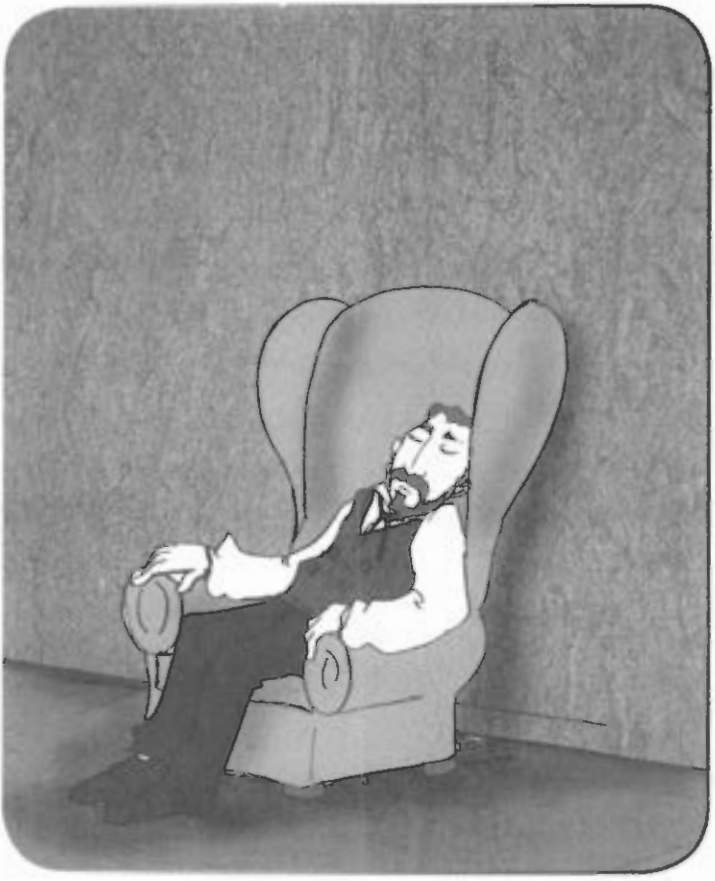

الـرُّؤيـا

رأيتُ كأني في قَفْرٍ[1] لا نبتَ فيه، وكأنني كنت بحيث لا لَيْلَ ولا نهَار، وكأن أخي كان يماشيني في ذلك القفر، ذلك الأخ الذي طويتُ معه عهدَ الحداثة ثم افترقنا وطال الأمد حتى نسيته.

سِرْنَا وقدْ رَمَانَا الطريقُ ببعض السَّابِلة، ثم خضنا في حديث جرَّ إلى ذكر جارة كانت لنا في ذلك العهد - كانت تعملُ أمام نافذةٍ مفتوحة تُطلُّ على

(1) القفر: الصحراء الموحشة.

الطريق، وكأننا ونحنُ نتحدثُ في ذلك القفرِ نجِدُ مَسَّ البرد المصبوب علينا من تلك النافذة.

وهَفَا بِنَا فَارسٌ في لونِ الرَّمَاد على فرس في لون التراب، عاري الجسدِ، أصلع الراس جميعًا، حتى أن الناظر إلى جمجمته ليكاد يَعدُّ فيها فروع أوداجه، بيده مِخصَرَة في لدونة فرع الكرم وفي ثِقل عود الحديد، هفا بنا ولم يسلم.

فقال لي أخي: اعطف بنا على هذا الطريق الأجوف، وكان طريقًا سماؤُه في لون أرضه لا يرى السالكُ فيه أجمةً ولا خضراء، وإني لأحدّثه وأنا لاه عنه بما أنا فيه، إذا به قد راغ روغة واختفى، ثم رُفعتْ لي قريةٌ فَيَمَّمْتُها فخرصت[1] عليها أنها قريةُ «روما نفيل»، فركبتُ أولَ طريق لَقِيني فإذا به قفر، عدلتُ عنه إلى ثان فلما بلغت الزاوية التي تربطه بأخيه إذا أنا برجل قائل عند حائط[2]، فسألته عن اسم القرية التي أحلّتني فلم يَنْعم بالجواب، وفُتح بابُ دار ولجَ[3] فيه ذلك الرجلُ فتعقبته فإذا أنا برجل قائم وراء البابَ فسألته لمن البيتُ فأعرض عني ولم يُجب، وكان للدّار بستان دَلَفْتُ إليه فإذا أنا برجل قائم تحت شجرة فسألته لمَن البُسْتَانُ فأعرض عني ولم يُجب، فَهمْتُ على وجهي في تلك القرية التي أقفرت من الإنس سُبُلُهَا وفُتِحَتْ أبوابُ دورها فما رماني الطريق بإنسيّ، ولا أحسستُ حركةً في دارٍ من تلك الدور، غير أنّي كنتُ أرَى عند كل جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرةٍ رجلًا قائمًا قد أخذ نفسه بالسكوت.

فانحدرتُ إلى المزارع فلم أكد أنقلُ فيها بعض الخُطَى حتى رأيتُ وقد نظرت خلفي زمرةً[4] تتعقّبني، وإذا بكل أولئك الذين رأيتهم قيامًا قد ترسموا أثري، ورأيت كأنهم يمشون الهُوينا، ولكنهم على تريثهم كانوا أوسعَ مني خُطًى وأخفَّ حركةً، وما هي إلا لمحة حتى لحقوا بي وتكنّفوني وكانوا جميعًا في لون التراب، فسألني أحدُهم وأحسبُه أولَ رجل لقيته عند هبوطي القرية.

---

(1) أي تظنيت خمنت حزرت.

(2) قائل، من القيلولة، وهي شدة الحرّ وقت الظهيرة. والحائط، الحديقة والبستان.

(3) ولج، دَخَل.

(4) الزمرة، الجماعة.

أين تمضي ويلك، أولَسْتَ قدمُتَّ من عهد بعيد؟ وبينا أتهيأ للجواب إذا بهم قد اختفوا جميعًا. ثم هَبَّ من نومه وكأنه قطعة من الجليد، وقد خمدت نار المدفأة وذابت الشمعة إلا قليلا، وكان الليل لا يزال ليلًا، فقام إلى النافذة ونظر نظرة في السماء، فإذا بها لا تزال ضريرة النجم، وكانت النافذة تُطِلُّ على فِناء الدار والطريق.

وبينما هُو ينظر إلى السماء إذا به قد سمع صوتًا جافيًا وضجّة عنيفة على وجه الأرض، فخفض بصره، فرأى نجمين أحمرين يَشعّان أشعة تترامى في جوف ذلك الليل، وكان لا يزال في بقايا خباله، فقال: لقد دُفِعَتُ الليلة إلى عجائب، تُرى أعافت النحومُ سباحتها فوقنا فهوت تسبح تحتنا، ثم قامت ضجّةٌ ثانية كان من أثرها في نفسه أن عاد إلى صوابه فنظر نظرة أخرى فإذا بالنجمين الأحمرين لم يكونا غير مصباحي عجلة قد شُدَّ إليها جوادٌ أبيض فسأل نفسه لأمْرٍ مّا بَكّرَت هذه العجلة.

وفوجئ بطَرْق على الباب، فأزعجته هذه الفُجَاءَةُ وصاح بصوت خشن من الطارق؟ تلك أنا يا سيديَ الشيخ فعرفَ صوتَ خادمه العجوز، فقال: وما تريدين؟ فقالت: إنها الساعةُ الخامسة يا سيدي. قال: وما شأنيَ بذلك؟ قالت: لقد حضَرتْ العجلة. قال: أيّةُ عجلة؟ قالت: تلك التي تقدّم سيدي بتهيئتها في هذه الساعة، وها هو ذا السائق يطلب لقاءك. قال: ويحك أي سائق؟ قالت: سائق السيد «سكوفير». وما كادَت تذكر هذا الاسم حتى احتوته رعدة وكأن برقًا من الذكرى قد خَطَف أمام عينيه، ثم سكت سكوتًا طويلاً ولو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشّي قلبها في صدرها من هول ما ترى. وعاوده البَلَهُ فجعل يلهو وتعبث أنامله بتلك الشباك التي نسجتها الشمعة من دموعها، وخاطرت الخادم بتذكيره. فقالت، سيدي الشيخ: كيف أجيب السائق؟ فقال لها: قولي له إني سأوافيه الساعة.

***

وكانَ البريدُ بينَ «أراس» و«منْتَرَايْ سيرْميرْ» يُحْمَلُ في ذلك العهد على عجلات ذات تُرْسَين مطوّقين بجلد أسْمَرَ، وفيَ كلَ عجلة مقعدان: مقعد للسائق، ومقعدٌ للمسافر. ولم تكن تلك العجلات التي انقرض اليوم نوعها على شيء من الرُّواء.

وقد كان أيسرَ عابٍ[1] بها أنها حدباء.

فإذا لاحت للناظرِ عند مُطَّرح البصر وهي تزحفُ تحت الأفق زحفًا حَسِبَ أنها من تلك الدوابّ التي دقّتْ خصورهاَ وثقُلَتْ أعجازها.

وكان البريدُ الذي يغادرُ «آراس» في كل ليلة لا يبرحها حتى يوافيها بريدُ «منْتَرَاي سيرميرْ». وفي هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط إلى «منتراي سيرمير» من طريق «هيدسان» قد صَدَم عند منعطف الطريق عجلةً صغيرة قد شُدَّ إليها جوادٌ أبيض وفيها إنسان مُدّثر، فرجّتها الصدمةُ رجَّةً أشفقَ معها حاملُ البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوفَ، ولكن الرجل قد انطلق في طريقه وهو يركُضُ جَوَادَهُ ملْءَ فروجه، فقال حامل البريد: ويلٌ له، لقد استطرد به الشيطان، ولم يكن ذلك الذي مرّ يعدو غير صاحبنا الذي بات على حال حقيقية بالرحمة، فلو أنك سألته إلى أين تمضي؟ ومالك هكذا تُسرع؟ لأجاب. لا أدري!

إنه خرجَ تحتَ مشيئة الاتفاق، فإما إلى «آراس» وإما إلى غيرها، ومَرّت تهوي به العجلة في جوف الليل وكأنّها مدفوعةٌ إلى هاوية، وكانَ يشعرُ أنه قد بات نَهْبًا لقوتين متباينتين لا قِبَلَ له بهما، هذه تدفعه وتلك تجذبه، ولا يعلم إلا الله وحده ما كان يجول في مناحي نفسه، ومن ذا الذي سَلِمَ من أن يضلّ ولو مرّة واحدة في ظلمات

(1) أي عيب.

مغاور الغيب. فسارَ وما عزم عزمًا ولا وقف عند رأي رَضيَهُ ولا سكنت سريرته لأمر أبرمه، فكان في أخرى هواجسه مثلَهُ في أولاها، ما زال واقفًا حيث كان، ثم عاوده ما كان يتمشى في نفسه حينَ ركبَ العجلة فقال: مهما كانت العاقبةُ فمن العْجز ألّا آخُذَ بالحيطة، وليس للمرء أن يقطع بوقوع أمر من الأمور، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثًا واستقراءً، ومن نَصَبَ نفسَهُ للحكم على الأشياء وهو غير مُكْثب[1] فقد أخطأ مواقع الرأي وأطْلَعَ من الذرّ جبالًا، ولعلّي إذا لقيت «جان ماتيو» وجدتُ الأمر أيْسَرَ مما في نفسي ورأيته أهلًا لما نزل به، أما «جافير» فما كانَ ليكيدَ لي وقد صرف الله عنّي عنانه وصبّه على «جان تاميو» فصّوب إليه الظنونَ والشبهات، ونعوذ بالله من عنادها، فإنها ما نزلت بصدر إلا تَعَصّي على صاحبه انتزاعها فلا خوفَ إذًا عليَّ من ذلك الداهية، ولا أكْذبُ نفسي فالساعة مرهوبة، ولكنّ باب الرجاء لا يزال مفتوحًا، ومصيري لا يزال بحمدَ الله في قبضة يدي أصَرّفه كيف أشاء، واشتد به بعد ذلك القلق فكان يُؤْثِرُ في قرارة نفسه أن يعود على أن يذهب.

وكَان كلّما انقبض صدره صبّ سوطَه على ذلك الجواد الذي كانَ يُحْضِرُ[2] إحضارًا، يطوي في الساعة فرسخين ونصف فرسخ، وجعل كلما اندفع في طَريقه نمَتْ عنده شهوةُ الرجوع.

ولما تنفّس الصبح أو كاد، كان في الفضاء، وقد اختفت مدينة «مونتراي سيرمير» فنظر إلى أفق قد ابيضتْ ذُؤابَته وبرزتْ صحيفةُ وجه فجر وَلَدَتْهُ ليلةٌ من ليالي الشتاء، إصبْاحُها، أشبه الأشياء بإمْسائها، لا تكاد تُرَى تباَشيره، ولكنَّ أخْيلة[3] التلال والأشجار قد أضافت إلى ما كان في نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والأسى، وكان كلّما مرَّ بدار من تلك الدور المنعزلة على لَقَم[4] الطريق قال في نفسه: ما لهذه الدار بُدٌّ من ساكن ينام ملء جفونه.

وكان لخبب الجواد وجَرْس جُلجُله ووقع العجلة على البلاط إيقاعٌ حسن، ونَغَمٌ مُتماثل يُدْخل الأنسَ على نفسَ الخليّ ويزيد في أسى نفس الشجيّ[5].

فبلغ قرية «هيدسان» وقد أضحى، فوقف أمام نُزُل رجاءً أن يُنفّسَ عن الجواد ويَعْلِفَهُ، وكان جوادًا كما قال عنه صاحبه من أصل بولونيّ، عظيمَ السّلَيل[6]، سحيرًا، أدكَّ[7]، أهْنَع[8]، مفتوح اللّبان، دقيق عظم الساق، صُلْب الحافر، فهو وإن لم يكن

---

(1) أي قريب.
(2) أي يجري جريًا سريعًا.
(3) جمع خيال.
(4) جوانب.
(5) الشجي: المشغول، وفي المثل ويْل للشجي من الخلي.
(6) أي: كبير الرأس.
(7) كبير البطن.
(8) عريض الكتل.

أصيلًا كان عُصْلُبًا[1] متينًا، فعْلَ فيلَ كرام الخيل، فطوى خمسة فراسخ في مدى ساعتين، وما نَضَحَ كَفَلُه بماء، وَلا رَمَتْ أعطافُه بحميم.

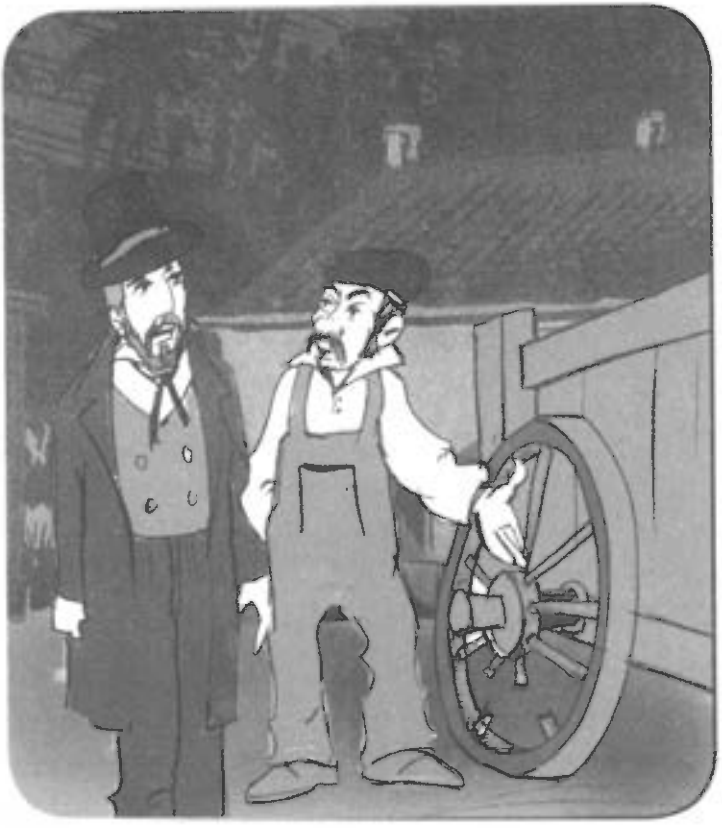

وكان لا يزال مشدودًا إلى العجلة حين حضر غلام النزل يحمل إليه العَلف، وحانت منه التفاتَةٌ إلى العجلة اليسرى فصاح بالرجل، أَوَ أَنْتَ على سفر بعيد، قال: مالك ولهذا! قال: هل قطعت شُقّةً طويلة؟ قال: خمسة فراسخ. فأجاب الغلام وهو يُدْمِنُ النظر إلى العجلة، لئن كانت قد قطعَتْ بك خمسةَ فراسخ، لمنَ المحال أن تقطَع بك ربع فرسخ آخر، انظر إلى ما حَلّ بها من العَطب، فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام، فقال الغلام وهو يحاوره: أوْلَى لك[2] فما كان أخلَقَها أن تطرحَكَ وجوادَك في حفرة من حفر الطريق، ثم أشار إلى مكان العطَب فإذا العجلةُ اليسرى قد اخترمها

---

(1) أي قوي الأعصاب.

(2) نجوت وما كدت تنجو هكذا شرحها لنا الشيخ محمد محمود الشنقيطي مضغ وهو من العرب للشيخ والقيصوم.

البريد حين صدمها في «منتراي سيرمير»، فقصفَ إصبعين من أصبعها وكادَ محورها يُفْلتُ المُحَوَّى[1] فقال الرجل: ابغْني نجارًا له خصّيصاءُ بهذا العمل. فقال: إنه على خطَوتين منّا، وكان النجار على عتبة داره، فجيء به، فجعل ينظر إلى العجلة وقد انقبضت أسارير وجهه كأنه مُطَبِّبٌ ينظر إلى ساقٍ مُهَشَّمة، فقال الرجل: أتعالج إصلاحها في الحال؟ قال: نعم - قال: ومتى أسافر؟ قال: غدًا، فأجاب الرجل غدًا وقد ملكه الدَّهَشُ، فقال النجار: إنَّ إصلاحَها يستوفي عمْرَ النهار كلّه، فهل أنتَ منْ أمركَ على عجل؟ قال: أحْوَجَني الساعة إلى السفر. قال: وَدِدْتُ لو تهيأ لك ذلك. قال: أصلحها ولك حكمك[2]. قال: ليتني أستطيع ذلك فأفوزَ بوعدك، قال: إني مسوق إلى السفر فإذا أعياك إصلاحها فابغني غيرها، ثم قال: أهنا مركبة للكراء، قال: عندي مركبة يَقبضني عن إكرائها ما أراه بعجلتك من العطب، ويلوح لي أنك غير حريص على مال غيرك. قال: بعْنيها. قال: أمَّا البيع فلا. قال: إنّي نَديُّ الكفِّ وإن اشتَطّ البائع. قال: تحت يدي عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها في السادس[3] والثلاثين من كل شهر فإن شئت اكتريتَها على شريطة ألا يراك ربُّها وأنت منطلق بها، ولكنها عجلة عاتية لا يستقل بها جواد واحد، ومَنْ لك السَّاعَة برأسين من الجياد؟ قال: من مرابط خيل البريد. قال الرجل: وما وجهك[4]؟ قال: مدينة «آراس» قال: أوَحَتْمٌ منْ الْحَتمْ أن تبلغها اليوم؟ قال: نعم. قال: ألا يستوي عندك أن تبلغها في فجر هذه الليلة؟ قال: لا. قال: هل تحمل جوازًا للسفر؟ قال: نعم. قال: إنك إذا تهيأ لكَ أن تحصلَ على جوَادينْ من مرابط خيل البريد فما أنت ببالغ «آراس» قبل الغد، فإن خيول البريد في هذه المراحل منثورة في المزارع، ونحن في إبَّان الحرث وهم يجمعون له الخيل أنَّي أصابوها، فإذا لجأ سيدي إلى ذلك كان عليه أن يلبَثَ نصفَ يوم عند كل مرحلة، دع ما يَعْرِضُ له من العقبات، قال: أسَرِّحُ جوادي هذا من عجلتي وأمتطيه فابْغني سَرْجًا. قال: وهل يصبر جوادُك على صحبة السرج؟ قال: لقد ذكّرْتَ مني ناسيًا إنه لا يصبر على صحبته. قال: هل من سبيل إلى جوَاد نبيل يبلغ بي «آراس» من غير تنفيس؟[5] قال: إنك لن تظفَر به، وهبكَ وجدتَه فإن رَبَّهُ[6] ليضن به ولو ملأت يديه ذهبًا.

فشاعَ السرور في نفسه، وقال: إن للعناية لَيدًا فيما أرى أوَليستْ هي التي أتلفت العجلةَ وقطعتْ عليَّ السبيلَ، وقد أنْذَرَتْني فلَم يَلوني إنذارها عن القصد والتمست المخرج مما أنا فيه، فما ثناني بَرْدٌ ولاقَعَد بي نَصَبٌ ولا أرهقتني نفقةٌ فأصبحتُ وقد

---

(1) المحوى المسمار القلاووز. (2) أي ما تشاء من الأجر.

(3) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا عند قيام الساعة يريد أنه لا يستخدمها مطلقًا.

(4) الوجه القصد، الجهة السبيل.

(5) أي في مشوار واحد كما تقول العامة. (6) ربّة، أي صاحبه.

عَدَاني اللَّوْمُ، فإذا استحال عليَّ المُضيّ في طريقي فتلك مشيئة القدر، ثم تنفَّس ملءَ رئتيْه تنفُّس الحُر الطليق، وخُيّل إليه أن السهم الذي ضَلَّ نَصْلُهُ في فؤاده قد انتزعه منه نَازِعٌ، فوجدَ لذلك رَوْحًا لم يجده منذ رأى وجه «جافير». وقال: لقد علمَ الله أني صنعتُ ما يكادُ يخرج عن الطوْقِ فأخطأني التوفيقُ، فلا أملك من أمري بعد هذا كله إلا الرجوعَ على هذين النعلين.

ولو كان حديثه مع النّجار في خَلْوَة لما وصل إلى أذن حيّ، وللبث مكتومًا، ولكنه كَان على الطريق المعَبّد، ومِنْ شأن مثله أن يَلْفتَ المارّ الذي يستهويه حُبُّ الاستطلاع فيقف ناشرًا أذنيه لتَسقُّط الخبر، فلا يكادُ المحدّثُ يمر في حديثه حتى يرى حوله حلْقةً من الناس، وما منهم إلا هو فارغ لذلك، وكذلك وقع «لجان فالجان»، فبينا هو يحاور النَّجار وإذا بطائفة من السَّابلة قد التفَّت حوله، وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين قد تسلَّل من الجماعة، وطَفقَ يَعْدُو حتى اختفى، وما كادَ يَهُمّ «جان فالجان» بالرجوع حتى عاد الغلامُ يصطحبَ امرأة عجُوزًا.

قالت العجوز: إنَّ غلامي هذا نقل إليَّ أنَّك في حاجة إلى مركبة، وما كادت ترمي بتلك الكلمة حتى نَدِيَ بالعرق جبينه، وشَعَر كأن اليد التي سرّحته منذ قريب توشك أن تقبض عليه من جديد، فلبث غير بعيد ثم أجابَ: نعم أيَّتها المرأة الصالحة فأنا في حاجة إلَى مركَبَة أكتريها ولكنهم يزعمون أني أحاول المحال، قالت: لقد وَجَدْتَها. قال: أين؟ قالت: عندي، فاحتوته قُشَعْرِيرَةٌ وقال في نفسه: كان الذي خفْتُ أن يكون، وكانت مركبةً عتيقة من الخيزُرَان قدَ علاها الوَحَلُ وأكلها الصَّدأ وفعل فيها الجوُّ فعْلَهُ، ولم تكن بأحسنَ حالًا من مركبته المعطوبة. ولكنها لم تأبَ على ما فيها أن تُقلَّهُ إلى «آراس» فلم يجد عنها مَزْحَلًا، فاكترَاها على حكم ربَّتها وشدَّ إليها جوادَهُ وانطلقَ في سبيله، وبينا كانتَ العجلةُ تجري به كان يجري في نفسه حديث غريب، لقد أحْسَسْتُ منذ هُنَيْهَة سرورًا بعثَتْهُ تلك الحوائل التي قامت بيني وبين المضي في طريقي وأرى الساعةَ أنه سرور كاذب، الويل لي، أيسرني الإحجامُ عن مقصد أنا الذي وَجَّهَ نفسه إليه مختارًا، والقعود عن سفر أنا الذي حمل نفسه عليه مسوقًا بإرادته. ولم يكدْ يمضي في طريقه حتى سمعَ صوتًا يُهيبُ به أن قفْ، فأوقفَ العربَة ارتجالًا، وقد عَرَتْهُ هزَّةُ المحموم المختلج، ولعلهَا إحدَى هزَّات الأمل، وإذا بغلام العجوز يناديه. أنا ذَلك الذي هيأ لك الحَصولَ على العجلة، قال: وما تريد؟ قال: أجري على ذلك. قال وقد فارقَتْهُ تلك الأريحية التي طالما كانت تهزه إلى إسداء الجميل: أعْزُبْ ولا كرامة، ثم ساطَ الجوادَ فانطلَقَ يعدُو وأراد أن يعوّض ما أضاعَهُ من الزمنِ في «هيدسان»، فحط على جوادِه بالسوط فلقى عناءً من الجر وكانَ قد

خرج به غب[1] سماء فكابدَ من الوحل وثقل المركبة ما كَاد يأتي على قواه، فلم يطو غير خمسة فراسًخ في مدى ساعات أربع حتى بلغَ «سانت بول»، وهناك نفَّس عنه في نُزُلهَا وقاده إلى الاسطبل ووقفً يعلفه. وأقبلتْ ربَّة النزل فقالت: ألا يأكل سيدي؟ فقال: ما أحوجني إلى الطعام، وتبعها وكانت امرأةً صبوحةَ الوجه فارهَة الجسم، وأقبلت خادم فهيأَتَ له الخوانَ وهو يسارقها النظر، وقد وجد لها في نفسه محلاً. فأهوى إلى الخبز فمضغ منه لقمة واحدة وكفّ يَدُه، وكان على المائدة التي بجواره سائق عجلة يأكل. فقال له: ما لهذا الخبز مُرًّا؟ وكان ألمانيًّا فلم يَفْقَهُ قوله ولم يُجبه، وانكفأ بعد ذلك إلى الاسطبل يراقب الجواد فلما فرغ من علفه شَدّه إلى العجلة وانطلق به إلى مدينة «تنك»، وكانت على خمسة فراسخ من «آراس».

فسارَ وقد غرقَ في هواجسه، وجعل يتأملُ وجوه الشجر وسطوح الأكواخ ومناظر الخلاء التي كانت تلوح له كأنها قد وقعت في غشية أو سُبَات.

وإن لوجوه الأرض لتَسْلِيَةً تُرَفّهُ عن النفس وتَصرفُها عن التفكير، ولكنه قد مرَّ بألْف وجه منها وما زال كاسف البالِ وفاته قولهم: من سافر فقد تجدد، وما يدريك لعلّه كان يقارن في نفسه بين تقلب الأجواء وذلك الوجود البشريّ الذي لا يستقر فيه شيء على حال! فكل ما فيه قد جبلَ عَلى الفرار منا، ألم ترَ إلى الليل والنهار كيف يتعاقبان، وإلى الشروق والغروب كيفَ يتناوبانَ؟ والمرء يرى ما يمرّ به فيُسرع باسطًا يديه ليمسكه فيَفلتَهُ، وكل حادث ينتابنا إنما هو لَيَّةٌ في طريقنا لا تلبث أن تُسْلمنَا إلى الكِبَر، وكلما أحْسَسنا تلك الهزات الخفيّةَ وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغَامض من الغيب، دع جواد الحَياة الذي يستطردُ بنا زمانًا ثم يقف على غِرَّةٍ من راكبه، فيأتي من جوف الغيب من يُرَجِّلُهُ عنه ثم يُسَرِّحُهُ.

وطَلَعَ والشَّفَقُ على مدينة «تنك» في آن، وكان النهار قصيرًا فانطلقَ حتى إذا مَرَّ برصَّاف يَرصفُ الحجارةَ، قال الرصَّاف وهو ينظر إلى جواده: أرى جوادًا مكْدُودًا، ثم نظر إلى الرجل وقال: لعلك تريدُ «أرّاس» قال:نعم. قال: إنك لن تبلغها على هذا الجواد. قال: كم بيني وبينها؟ قال: سبعة فراسخ. قال: إن دليل البريد لا يقول بقولك. قال: إنهم يُصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنّى لك المضيّ فيه، وما أخْلَقَك بالعروج على طريق آخر، فعليك أن تَتَيَاسَرَ ثم تركب طريقَ «جارنس» ثم تَعْبُرَ النهرَ هناك فَإذا بلغت «كامبلان» فَتيامَنْ واركب المحَجَّة إلى «أراس».

قال: أخشى الضلالَ في هذا الليل البهيم[2]، قال: أَولَستَ من أهل هذا البلد؟ قال: إنّي غريبٌ. قال: عُدْ إلى «تنك» واقضِ الليلة في نُزُلها واستبدل بهذا الجواد

---

(1) أي عقب مطر.

(2) الليل البهيم: شديد الظلام.

الذي نزح التعبُ قواه جوادًا يُقلُّكَ إلى «أراس» قال: استحالَ غير السفر في هذه الليلة. قال: استأجرْ جوادًا ودليلا، فعَمِلَ بمناصحته، وقفل[1] إلى «تنك»، وعادَ يعدو بجواد جديد يصحبهُ غلام من النزُل.

وغاب في أحشاء ليل قد كسرَ على الأرض جَنَاحَيْه، وكان الطريقُ وعْرًا، والعجلةَ تُجَلْجِل[2] فوقَ نُكَت[3] الأرض، وهو فوقها مُقَلْقَل الشخص يُهيبُ بالغلام إيه إيه، ولك ضعْفُ الأجْر، فصاح الغلام لقد عُطِبَ العريش، فكيفَ نَمضي ونحنُ بينَ طريق وعْر وليْل خليق أن تصدّنا محارمُهُ[4] عنَ السُّرَى، فهل لك أن تعودَ إلى «تنك» وأنا الضمينُ أن تَبلغ «أراس» عند مُنْبَلَج الصباح. فقال: أمعك حبل وسكين؟ قال: نعم، فأهوى إلى شجرة فاقتضب منها فرعًا أقامهُ مقام العريش وانطلق في سبيله.

وكانَ الوادي في ظلام دامس والضبابُ «دانٍ مُسِفٌّ[5] فُوَيْقَ الأرض هيْدَبُهُ» ينبعثُ من التلال كأنه كسَفٌ مِّن الدخَان، وقد شاعَ في سَواد السحب بياض، وهبّت ريح البحر في جوانب الأفق فكان لهبوبها أشبهُ الأصوات بصوت الأثاث عَبَثَ به عابث.

فتمَخَّخَ البردُ عظامَهُ[6]، وكان طاويًا منذ العشيّة فذكّرَهُ القُرُّ والطَّوى تلْكَ الليلةَ التي قضاها منذ سنين ثمان في ضواحي مدينة «ديني»، وقد ذكرها كأنه يذكر أمْسَ الدابر. وسرَى إلى سمعه جَرْسُ ساعة على بُعْد، فقال للغلام: ما هذه الساعة؟ فقال: إنها الساعة السابعة، وسنبلغ «أراسً» في الثّامنة، فليس بيننا وبينها غير فراسخَ ثلاثة.

ونزلت برأسه فكرةٌ لم يَسْبِقْ لها فيه النزول فقال: الويل لي، ما أضيَعَ ما جَشَّمْتُ[7] نفسي في يومي هذا من التعب أما كان الأخلق بي أن أعْلَم علْمَ تلك القضية وموعدَ النظر فيها، ثم قَدَّر في نفسه تقديرًا لذلك الموعد وقال: إنَ الجلسات لا تعقد قبل الضحى، والنظرُ في هذه القضية لا يفتقر إلى الكَثير من الزمن، إن هو إلا سؤال وجواب فشهادة أو شهادتان، فكلمة للمُدَافع، فحكم لا يتعدى التغريم، ولعَلّي أبلغ الجلسة قبل الفوات، كل ذلك والغلام يسُوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة «مونت سان ألواي» وقد سطت غياهب الظلام.

«ولْنعُد بالقارئ إلى «فانتين» في الوقت الذي تجري فيه هذه الحوادث كانت

---

(1) قفل: رجع.
(2) أي تتحرك مضعضعة.
(3) الحفر الصغيرة التي تنشأ عن وقع العصا أو العقب.
(4) أي مخاوفة.
(5) مأخوذة من قول الشاعر: دان مسف فويق الأرض هيدبه. يكاد يدفعه من قام بالراح يصف سحابًا قريبًا من الأرض.
(6) دخل البرد إلى العظم من شدته.
(7) جشمت نفسي: حَمّلتُها.

«فانتين» رضيّةَ البال، وكانت قد طوت ليلة مذكورة، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الأحلام ما يَهُدُّ الحيْلَ. ولما أصبحت كانت لا تزال تَهذي، وعادها الطبيب فوجدها في فَوْرَة من النفس فطلبتْ إليه أن يُنذرها عند قدوم «مادلين».

ولبثت في تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاها[1]، وجعلت تلهو بطيّ غطائها طيات مقدرة، وتحرّك شفتيها كأنها تَذْرَعُ[2] بفكرها مسافةً من المسافات، وقد غارت عيناها، وجَمَد بصرُها، وانطفأ ضياؤه أو كاد، وكانت تفتح بين الفَيْنَة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب، ولا عجب فإذا دنت ساعة الشدة فإن مَددًا من السماء يملأ نفوس أولئك الذين فقدوا مدد الأرض.

وكلما سألتْها الراهبة كيف أنت؟ قالت: أحمدُ الله ولا أطلب إلا رؤية «مادلين».

منذ بضعة أشهر وفي ذلك الحين الذي ابتذلَتْ فيه «فانتين» خدْرَها فتمزقت عفتُها، وغاض حياؤها، كنتَ ترى «فانتين» وكأنها ظلّ «لفانتين»، أمّا اليومَ وقد فني جسمهُا فقد كنت ترى «فانتين» وكأنها طيف «لفانتين» «والظل للجسم والطيف للروح»، ولقد كان لتشويه خَلْقها أثر في تشويه خُلُقها، فانظر إلى تلك المرئيَّة التي لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعًا، كيف هبط أكثر لحمها فتجعّدَ جبينها ورَهَلَ[3] خدّها، وشحَبَ لونها[4]، وبرز مَنْكباها، وتجرّدت عظام نحرها[5]، وانبرت أعضاؤها، وأصبح جلدها وكأنما طَلَاهُ بالطين طال، ونبت شعرها الأشقر وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب، فأفٍّ من المرض فإنه يرتجل الشيخوخة وإنه لأنجبُ مطايا الكِبَر.

وعند الظُّهر عادَها الطبيب فسأل عن «مادلين»، ولما علم بغيابه حرّك رأسه حركةً أعربت عن الأسف.

وكان «مادلين» يأتي في عصر كل يوم وما تخلّفَ مرّة عن ذلك الموعد، والوفاء من شمائل الطيبَة، وقد كان الرجل طَيِّبًا.

وعاودتها عند العصر فورةُ النفس، فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات في مدى عشرين دقيقة، ثم استوت فجأةً في سريرها، تلك التي كانت لا تنبعث لها جارحة من المرض والهُزَال.

ثم شبّكت ذراعين قد أنحلهما السَّقَمُ وأرسلت من صدرها تنهدًا خُيِّل معه إلى الراهبة أنها رفعت به عن صدرها ثِقلا ،ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم إنسان،

---

(1) فاها، فمها.
(2) تقيس بالذراع.
(3) أي استرخى اللحم.
(4) شحب، تغير إلى الأسوء.
(5) النحر، أعلى الصدر والمراد الرقبة.

ولكنّ الباب لم يَرْمها بأحد، فلبثت برهة وهي تنظر إليه، وكأنها معلّقَةُ الأنفاس والراهبة لا تَجْرؤ على سؤالها، ثم ألقت برأسها على الوسادة، ومرت الساعة تِلْوَ الساعة ولم يزرها زائر.

وما رآها على تلك الحال راءٍ إلَّا علم بما يجول في فكرها ولكنها صابرتْ آلامها فلم تَشْكُ ولم تتوجّع.

وسمعتها الراهبة قُبيل الغروب وهي تقول بصوت خافت: إنني هَامَةُ اليوم أو الغد فما كان أخلقه اليوم بزورة الوَدَاع، ثم طَفقَتْ تغنّي، وكأنَّ صوتها نفحة منَ نفحات النسيم، أغنيةً عتيقةً تدعى بأغنيةَ الأُرْجُوحَة، كانت تتَنَغَّمُ بها «فانتين» لإنعاس طفلتها في عهدها الأول، وقد كان صوتُها يقطرُ حزنًا وإيقاعها مشجيًا لا يملك السامع معه الدموع من أن تسيل، فبكت حتى تلك الراهبةُ التي درَجَتْ على الزهد والتّقشف.

ولما أعْتَمَتْ[1] عَلَتْ وجهها آيات الذهول، وأرسلت الراهبةُ صَبيةً تسأل عن «مادلين»، فعادت على الأثر وأسرّت لها أن «مادلين» قد سافر وحيداً في فجر هذا اليوم ولا يدري خَلْقٌ بالوجه الذي يريده.

وقد رآه قوم على طريق «أراس»، وزعم قوم أنه قد ركب طريق «باريس»، وكان هو هو، لم يلمحوا على ظاهره ما ينُمّ على باطنه، وبينا هما يتسارَّان على مقربة من سريرها وقد استدبرتاه وإذا «بفانتين» وكأنَّ نافضًا من الحمَّى تمازجه حركةُ المُعَافَى في بدنه قد حرّكها في سريرها.

فهبَّتْ رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجثت على ركبتيها، واعتمدت على الوسادة بمرْفَقَيْهَا، وأرْهَفَتْ للسمع أذنيهَا وفرّجت برأسها ما بين سِجْفَيْ كلَّتها[2]، وصاحت بهما: إنكما تخوضَان في حديث وإن «لمدلين» فيه لشانًا، ونادتهما بصوت تخالطها البَحَّة والخشونة كان من أثره في نفسيهما أنْ ظنَّتا أن المتكلم رجل من الرجال، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما: ما لكما لا تنطقان؟ فقالت الصبية بصوت خافت: إن البوَّابة تقول إنه لا يعود الليلة، وقالت الراهبة على أثرها: اهدئي أنت ونامي، فاجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرةٌ من الأسَى، إنه لا يعود، أراكما تتسارّان في شيء تحاولان كتْمانه عني، ولابدَّ لي من الوقوف عليه، فألقت الصبيةُ في أذن الراهبة كلمات فاحمرَّ وجه الراهبة وهالها أن تكذب، ثم ترددت بعضَ الشيء، وقالت في نفسها: إنْ أنا صدَقْتُها في مثل هذا الموطن فقد قتلتها، وإن أنا كَذَبْتُها فقد قتلتُ كرامتي، ثم لبثتْ غيرَ بعيد. وقالت «لفانتين» بصوت المتمكن من نفسه: إنَّ «مادلين» قد سافر منذ اليوم.

فاستوت المريضةُ في سريرها وسَرتْ بنفسها عبقة من السرور، ومرّت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت، إنه سافر ليرى «كوزيت» ثم ضَمَّتْ يديها واستقبلت السماء بوجهها وأخذت تصلي، ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة: الآن حلَا لي النومُ إمضاءً لأمرك فلا تُنْزلي أمري على الجُرأة عليك إذا رفعتُ صوتي في الحديث، فما فاتني أن ذلكَ كان خروجًا عن أفق الأدب، وإنما استخفني السرور، ثم أخذت مَضْجَعَها بَعْدَ أن لثمتْ صليبها وقالت لها الراهبة: اهْدئي ونامي، فضمت يديها الناديتين على يدي الراهبة التي هالها وَفْرُ العرَقِ الناضح من جسم المريضة.

وأنشأت «فانتين» تقول: سافرَ إلى باريس، وما كان أغناه عن ذلك و«مونت فورمي» على يسار ذلك الطريق فلعلّه يتحرّى مفاجأتي بذلك النبإ السارّ، فقد قال لي بالأمس حين جرَّ الحديث إلى ذكر «كوزيت» وقد وُفُّوا أجورهم، فحبْسُها عني افتياتٌ على أولى

---

(1) المراد به، وقت العتمة وهو المساء.

(2) الناموسية.

الأمر، فلا تُومئي إليَّ بالسكوت، فأنا الساعة في عافية لا عهد لي بمثلها وسعادة لا حدَّ لها، أوَلَسْتُ خليقة بعد أعوام خمسة أن أرى وجه طفلتي ولا أحسبها وقد بلغت السابعة إلا صبيةً حسناء، ولقد صَبَرْت عَلَى بعدها طِوالَ السنين، وللصبر حَدٌّ، ولو أنَّ لي عُمْرَ الأبد لهانَ ذلك البعاد!

فما أطيَبَ عُنْصُرَ ذلك الرجل الذي غامر بنفسه في ذلك البرد القارس لإنقاذ طفلتي ولعلّه يعود في الغد من «مونت فورمي»، وهي بلدة قد قطعْتُ طريقَها على قدمي منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة عليَّ وإن كان يَسيرًا على العَجْلَان، فيا تُرَى كم بيننا وبينها؟ فأجابت الراهبة التي لا علم لها بتلك الشقة: إنه سيعود بإذن الله في الغد، فقالت: سأرى بُنيَّتي في الغد إنّ الأمل بلقائها قد ألبسني ثوب العافية، فلستُ مريضةً كما تزعمون، ولكنّي مفتونة، فلو أني دُعيت الساعة إلى الرقص لأبْدَعْتُ فيه، وكانت في هذه الآونة ورديَّة اللون قد ابتسمت قَسماتُ وجهها فكنتَ ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمّع من البَسَمات، وما أشْبَهَ سُرورُ الأمهات بسرور الأطفال!

ثم ألقتْ برأسها علَى الوسادة وجعلت تدورُ بعينيها في أرجاء الحجرة، وقد بدّت عليها سيما الارتياح، فأطبَقت الراهبة الستائر على كلّتها[1] رجاء أن يأخذها النُّعاس، وعاد عند العتمة الطبيب، فلم يُحسَّ حركةً في المكانَ فعزَا ذلك إلى نوم المريضة فخافَتَ[2] من مشيته ودنا من سريرها وأزاح الستار، فرأى على ضوء الساهرة[3] وجهًا هادئًا وعينين لم يُرَنّقْهُمَا النوم فابتَدَرْتَه قائلة: إنهم سَينيمونَها هنا بجانبي على سرير صغير، فعجبَ الطبيبُ من أمرها، وظنها تَهْذي، فانتحى بالراهبة ناحية، فنفضت إليه جملة الأمر، ثم عاد إلى سرير المَريضة. فقالت: إذا تيقظتْ بُنَيَّتي ألقيتُ عليها تحيّة الصباح، وإذا نامتْ صنع بي تنفسُها الهادئ مالا يصنعه الدواء، فأتّجهُ إلى العافية، فقال لها الطبيب: يَدَك فمدتْ يدها وهي تبتسم وتقول: ألا تَرى أني نجوت؟ فدُهش الطبيب حين جسّ نبضها ورأى الحياة تجري فيها جريانًا! فقال: إنه من صنع السرور الذي أدخله على نفسها الأمل بلقاء بنيَّتها، ثم أوصى بالسكوت، وأمر بدواء يُلَطّفُ من حدّة الحمّى إذا هي عاودتها في ليلها وقال للراهبة عند انصرافه: إذا أسعدها الطالع برجوع «مادلين» في الغد فقد نجت.

وكم من سرور مسح من مرض، وإنه لسرّ من الأسرار التي سيكشفها العلم في مقتبل الزمان.

---

(1) جسدها وحجرتها.

(2) أي مشى على أطراف أصابعه.

(3) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القرابة عند العامة.

ولما كانت العتمة، وقف المسافر الذي تعقبناه على باب النزل «بآراس»، وسرَّح الجواد الذي استأجره، وقاد بنفسه الجواد الأبيض الصغير إلى الإصْطَبْل، ثم عاد إلى النزل وجلس في إحدى قاعاته وارْتَفَقَ[1] على منْضَدَة، وكان قد استوفى عمْر يوم وليلة في سفر كان يُقَدّرُ له نصْف يوم، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القَدرَ.

ولو أنك قرأتَ ما في نفسه لتجلتْ لك فيها آياتُ الرضى، ودخلتْ عليه في هذه الأثناء ربَّةُ النُزل وقالت: أيرغب سيدي في العشاء والنوم؟ فأومأ لها برأسه إيماءة الرفض، ودخل على أثرها غلام الإصْطَبْل وقال: إن جوادك مكدود[2]، فابتدره قائلًا أوليس في طَوْقه[3] السفر غدا، قال إنه لا يستطيع الحركة قبل يومين، قال: أينَ مكتبُ البريد فقيدَ إليه، فأخرج جواز السفر، وطلب العودة إلى «مونتراي سيرمير» في نفس البريد الذي قدم معه، وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خاليًا، فأجيبَ إلى طلبه ودفع النفقة وأنذرَ بالسفر قبيل السَّحَر.

ثم غادر النُزل، وجعلَ يمشي في المدينة، ويتنقل في طرقاتها على غير هدى، وكَبُر عليه أن يسألَ المارَّة، فعبر النهر وخلَصَ إلى زقاق ضيّق، فضلَّ السبيل، ومرَّ به فلّاح يحمل فانوسًا[4] فبدا له أن يسأل عن الطريق، ثم نظر إلى الخلف والأمام كراهة أن يسمعه إنسان، ولما أمن ذلك سأله أين دار المحكمة؟ وكان الرجل من ذوي الأسنان[5]، فقال له: يلوح لي أنك غريب، فاتَّبعني فإن طريقي عليها،

(1) اعتمد بمرفقه. (2) مكدود: أخذه الكد، وهو التعب.

(3) طاقته وقدرته.

(4) الفانوس في الأصل النمام وقد استعمل للشمع لأنه ينم عليه. (5) كبير السن.

فانطلقا حتى إذا كانا على كثب من الغرض أنشأ الفلاح يحدّثه: إن كنت ربَّ قضيَّة فقد جئت بعد الفوت، على أني لا أزال أرى ضَوءًا بنوافذ قاعة الجلسة ولعلها لم ترفع، فإن كُنت شاهدًا فقد جئت في الوقت. قال: إنما جئتُ لاستشارة مُحام فقال الفلاح: هاك البابَ فإذا دخلت فارْقَ الدّرجَ.

فمضى الرجلُ على إرشاد صاحبه فإذا هو في قاعة فسيحة قد غَصَّتْ بالناس، وطائف من المحامين هَنَّا وثَمَّ يتهامسون. وإن رؤيتهم وهم في ملابسهم السود لممَّا تنقبض لها النفس، فَقَلَّ أن تخرج كلمةٌ من أفواههم يستروح منها السامع روائح الرفق أو يجدُ ريح البرّ فلا يكاد يسمع إلا نعيبًا يؤذن بحلول العقاب.

فإذا مررت بهم حَسِبْتَ أنك أمام خَليَّة دُونها خلايا النحل - خَليَّة تَطنُّ فيها العقول طنينًا حتى لَيُؤَتَّى لك، وقد أخذتك الوَحشة أنك في معبد مظلم تَعْمُرُه الأرواح. وكانت القاعةُ على ترامي أطرافها لا يُضيئُها إلا سراج واحد، فمشى الرجل فيها وقد شدّ منه ذلك الظلام الذي عَجَز عن تبديده السراجُ، فلم يستحي أن يسأل أوَّل محام لَقيَهُ فيمَ القوم؟. قال: قُضيَ الأمرُ، فارتاع، وقال: قُضيَ الأمر، نطقها بمرارة لفتتْ إليه المحامي. فقال: أَلَعَلَّكَ قرابةٌ[1] له؟ قال: لا شأنَ لي ولا قرابة. فهل حُكِمَ بالإدانة؟ قال: استحال غير ذلك. قال: أتراه سجن الأبد؟ قال: نعم. قال: بصوت لا يكادُ يُسْمَعُ لقد عُرِفَت إذًا شخصيَّتُهُ. قال: أيَّةُ شخصية؟ لقد كان الأمرُ جليًا، امرأةٌ قتلتْ ولدها فحَقَّ عليها العقاب قال: أعَن امرأة تتكلم؟ قال: نعم. قال: ما لهم وقد فَرَغُوا من أمرها لا يزالون في مقاعدهم. قال: إنهم ينظرون منذ ساعتين في شأن آخر، قال: وما عسى أن يكون؟ قال: مجرمٌ عائدٌ من أرباب السوالف وأضياف السجون، لا يَحْضُرُني اسمُهُ قد أخذوه بسرقة جديدة، ولعلهم لا يتلوَّمُونَ في الحكم عليه، فسجنتهُ سَجْنَةَ الفاتك، ولو كنت قاضيًا لكفتني النظرةُ إليه مؤونةَ التحقيق في أمره، قال: ألا يتسنى لي الدخولُ؟ قال: إن القاعة مكتظّة بالناس، وقد رُفِعَتْ الجلسة فإذا عادوا إلى النظر فربما تهيأ لك الدخول في غمار الناس، قال: ومنَ أين أخْلُصُ إليها؟ قال: من ذلك الباب الكبير. ثم غادره المحامي وهو على غير استواء، وكأنَّ إبرًا من الثلج ونِصَالاً من النار قد اعتورتْ فؤادَه وخزًا وطعنًا ولم يدر أكان مَأتَاها الألَمُ أم السرور، وجعل يقتربُ من الناس وهم قنابلَ[2] قنابل يتحدثون، فسمعهم يقولون: إنَّ هذا الرجل قد سرقَ تفاحًا، فهو وإن لم تثبت عليه السرقةُ فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين، وقد انقضى استجوابه، وشهدت الشهود، ولم يبق إلا دفعُ المحامي وردُّ النائب، وربما استوفى ذلك من الليل نصْفَ عمره، ولا نظنه يُفلتُ من

(1) أي قريب.

(2) جماعات جماعات.

العقاب، فالمدعي فتى ذكيُّ الفؤاد أديبٌ ينظم الشعر ويعرف كيف يُوفي الاتهام حقَّهُ، فدنا من الباب فوجد عنده حاجبًا فسأله: متى يُفتح؟ فقال: لا يفتح، قال: كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها. قال: قد عُقدَتْ الجلسةُ والقاعة قد ضاقت بمن فيها، قال: ألاَ أجدُ فيها مكانًا أصُفُّ فيه قَدَمَيَّ؟ قال: لا، ثم عطفَ قائلًا: إن خلْفَ الرئيس مكانًا أو مكانين لا يُؤْذَنُ بحلولهما لغير الخاصة، ثم ولاّه ظهره، فنكس الرجل رأسه، ومشى مشيَةَ الحائر، وهبط بعض الدرج وهو من نفسه في حرب عَوَان، ثم أخرج من جيبه بَيْضَاء[1] خَطَّ فيها، مادلين شيخ «مونتراي سيرمير»، ثم صَعَّدَ الدَّرَجَ وشقَّ الصفوف، وأتى الحاجبَ وقال له بصوت الآمر: احمل هذه إلى الرئيس. فأخذها الحاجبُ وألقى عليها نظرةً عَجْلى ومضى طائعًا.

منذ سنين سبع و«مادلين» نابه الذكر، قد اقترنَ اسمه بالثناء، وملأتْ شهرتهُ جوانبَ الأفق، فجازَت حدودَ بلده إلى ما جاوره من البلدان فتعالَم[2] الناسُ فضله، وأخْصَبَ به الزّمانُ والمكانُ، فنَمَتْ في عهده صناعة الْخَرَزِ الأسْود، وكانت له يَدٌ على الصناعات، فمدَّ المصانع بالمال حتى حُسد بَلَدهُ عليه.

وكان رئيسُ الجلسة في «آراس» ممن يُعَظّمُون «مادلين» ويُبجّلونه، فلم يكد يحمل الحاجب إليه رقعته حتى أذنَ له، فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمسُّ الأرضَ بجبهته وحتى تبَيَّن «مادلينَ» إعظامَه في حماليق عينيه وقال له: ليدخُلْ سيَّدي غير مأمُورٍ، ومشى أمامه مشية العبد القنّ[3].

ذلك الذي كان يُوليه ظهره غير مكترث له، ثم مدَّ له يده برقعة الرئيس، فتناولها واقترب من المصباح، وقرأ على ضوئه، إن رئيس المحكمة بآراس يُهْدِي تحيّةً يمازجها الإجلال إلى الشيخ «مادلين».

ثم تبع الحاجب فلم يلبث أن رأى نفسه وحيدًا في قاعة المداولة وكانت قاعَةً لا تَسُرُّ النظر، يُضيئُها شمعتان قد نُصبتا على مِنْضَدَة أقيمت على بساط أخضر، وذكر قول الحاجب عند انصرافه: إنك يا سيدي في قاعةِ المجلس، فإذا أدرت ذلك الزرَّ النحاسيَّ الذي تراه بالباب وجدت نفسك في قاعة الجلسة خلف كرسيّ الرئيس - فَفَعَلَت في نفسه تلك الكلماتُ فعْلَها، واختلطت بما كان يدور في رأسه من الذكريات المبهمة التي بعثها فيه، ما صادفه في ذلك الممشى وما مرّ به في تلك الدرج، وأوفت الساعةُ المرهوبة، فحاول أن يجمع أشتاتَ نفسه فلم يُغْنِ شيئًا،وتضعضع في ساعة هو أحوج ما يكون فيها إلى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الأليمة، وكم قُطِعَ في مثلها

---

(1) أي ورقة بيضاء.

(2) أي علم.

(3) العبد المطيع لسيده.

سلك التفكير، ومُلكتْ على المرء المذاهبُ، فقد كان في الموطن الذي يجلس فيه القضاةُ فيُدينُون ويبرئون، وجعل ينظر نظر الأبله إلى تلك القاعة الساكنة المُرَوّعة التي يُقْضَي فيها على أرواح العباد، وكان به وهو ينظر إليه أن اسمه سوف يُدَوّي في جوانبها وأن المقدور عليه سوف يُحَلّق في سمائها. وجعل يتنقل ببصره بين جدرانها وبين نفسه ويقول: تُرى ما هذه القاعة وتُرى من أنا؟ وكان قد طوى يومًا وليلة، وفعلت فيه رجَّاتُ المركبة فعلها، ولكنه لم يستشعر ألمًا ولم يُحسّ جوعًا، ودنا من إطار أسود معلق على الجدار فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج، خَطَّها «جان نيكولا» «باش عمدة باريس وأحد الوزراء» رَصَدَ فيها أسماء النواب والوزراء الذين اقتضبُوا من دورهم اقتضابًا وسيقوا إلى السجن، ولو أن امرأ تفرس فيه لأدرك للوهلة الأولى أن الرسالة قد أخذت من نفسه محلًا، على أنه قد قرأها ثلاثًا ولم يملك الفهم، ولا عجب فقد كان يفكر في «فانتين» و«كوزيت». وانفتل وهو في تلك الغمرة فأخذ بصَرُه قبضَة الباب الذي يفصله عن قاعة الجلسة، فأدْمَنَ إليه نظرًا هادئًا، ثم بان فيه الخوف، ثم أطَلَّ من محاجره الفزعُ، ثم تلاه الجزع، فَنَدِيَ بالعرق جبينهُ، وأتى على أثَر ذلك بحركة يُخْطئُها الوصف.

حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه «ما الذي يحملك على كل هذا»، ثم انفتل ثانيًا فوقع نظره على الباب الذي دخل منه، فاندفع إليه ففتحه، ونجا من تلك القاعة إلى ممشى طويل، جمّ المُنْعَطَفَات، كثير الليَّات به طائفة من النوافذ تقطعه دَرَجٌ للهبوط، تُضيئُهُ سُرُج ضئيلة النور كأنها السواهر.

فتنفَّس الصُّعَدَاء، وأصْغَى فإذا هو في سكون الرموس[1]، فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد، حتى إذا غاب في أحشاء تلك المُنْعَرجات وقف يستمع للمرة الثانية فلم يُرَوِّعْهُ مُرَوِّع، فجعل يُنفِّس عن نفسه كَرْبَ الْعَدْو، فأسند ظهره إلى الحائط فوجد مسّ البرد من حجارته فاعتدل مقففًا.

ولما وجدَ نفسه قائمًا وحيدًا في جوف هذا الظلام، نَهْبًا للبرد والهواجس جعل يفكّر، على أنه قد فكر فَحْمة الليل وسَرَاةَ النهار، فلم يسمع غير صوت واحد يناديه، وا أسفاه! ومرَّت به فترة وهو على تلك الحال، ثم أمال رأسه وأرسل ذراعيه وتأوَّه آهَةَ الرجل الحزين ورَجَعَ أدْرَاجَهُ، وجعل يمشي مشية المتثاقل كأنّ لاحقًا لحقَ به في فِرَاره فَصَدَّه عن قصده ورده إلى حيث كَان، فدخل القاعة التي بَرَحَها وأخذ نَظَرُهُ قبضةَ الباب الذي يفصله عن قاعة الجلسة وكانت من النحاس المصقول، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النّحس، فجعل ينظر إليها نظرة الشاة إلى عين النَّمر، وأخذ يدانيها ثم اندفع وهو لا يدري إلى الباب وأهوى بيده إلى القبضة فأدار زرَّها فإذا بالباب وقد انفلق عنه، وإذا به في قاعة الجلسة فخطا خطوة، وأقفل خلفه الباب، ووقف يُنْعِمُ النظر فيما يرى.

وكانت قاعةً فسيحةً تربو ظلماتُها على نورها، يملأُ جوانبها الضجيجُ وتارة يغمُرها السكونُ، قد طُرِحَتْ فيها قضيّة «جان» تَحُوطُها خُطُورةٌ تَشُوبها المسكنَةُ ويتمشى في أثنائها انقباض في الصدور.

---

(1) جمع رمس، وهو القبر.

وفي الجانب الذي وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شيء من الاكتراث، عليهم أردية بالية، وهم بين قارضٍ لظُفُرِه ومُغْمِضٍ لعينيه.

وفي الجانب الآخر لفيف من الناس في أخْلاق[1] الثياب وقد نُثِرَ بينهم محامون في شتى الأزياء ومُخْتَلَفَ الأوضاع وعلى ضواحيهم أحراس تهب من أردانهم ريحُ القسوة ويعبقُ أرجُ الشرف، وكانوا تحت سقف قد كسته الأقدار وفوق أخشاب قد بلغ منها القِدَمُ، أمامهم مناضدُ تكسوها أجواخ صفراء كانت في ميعة صِباها خضراء، وحولهم أبوابٌ قد طلاها تداول الأيدي بطلاءٍ من القار، تُضيء لهم سرجٌ من سُرُجِ الحَانات قد عُلّقَتْ في مساميرَ مرشوقةٍ في الحائط تبعَثُ من الدُّخَان فوق ما ترسل من الأَضْوَاء. وقد نُصِبَ على كل مِنْضَدةٍ شمعدان من النحاس أقيمتْ فيه شمعةٌ. وقد كان الظلام المخيّمُ فوق ذلك المشهد المهيب يُولِّد في نفس الناظر شعورين من وقارٍ وإكبار، شعورًا بعظمة المخلوق ومظهرهُ القانون، وشعورًا بعظمة الخالق ومَجْلاهُ العدلُ. وقف «مادلين» ولم تأخذه عَيْنٌ، فقد كانت العيون مُصَوَّبَةً إلى هدفٍ واحد، مقعدٍ من الخشب بجانب باب صغير في طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل بين حارسين وشموع تَزْهَرُ، وكان هو الرجل!

رآه «مادلين» ولم يُجَشِّمْ عينيه مؤونة البحث كأنه كان معه على ميعاد، وقد خُيِّلَ إليه أنه يرى فيه نفسه ولكن في سنّ عالية، وما كان الشبه بينهما قاصرًا على السحْنَة ولكنّه كان في الموقف والمنظر وذلك الشعر القافّ وذلك النظر الشَّزِرِ الذي لا يفارقه القلق، وتلك الأهدام البالية التي كان يجول في أمثالها يوم دخل مدينة «دني» يحمل في نفسه ضَبًّا من الضّغْن[2]، ويُخفي فيها ذلك الكنزَ الذي اقتناه في أعوام سجنه.

ذلك الكنز الذي جمعه على بلاط السجن من وَحْيِ الشرّ، لا من يتيمات الدُّرّ.

---

(1) الثياب البالية.

(2) أي يحقد حقدًا شديدًا.

فارتعد وقال: اللهم غَفْرًا، أكَذَا تكونُ العُقْبَى؟ وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين أو جازها يلوح عليه ضرب من البله على حواشيه جَفْوَة واسْتِيحَاش.

ولما فتح «مادلين» البابَ صرَّ صريرًا نَبَّه القضاة ففسحوا له مكانًا ولفت الرئيسَ فحيّاه، وحيّاه على أثره المدعي العامّ، فلم يكد يلمح تلك التحايا لأنه وقع في ذهول قد افترس طَائرَ حِلْمه.

قضاةٌ وكتَّاب، وشُرَطٌ، وجمع مشرئبّ الأعناق على ظمإٍ إلى الاستطلاع، إنه شهد هذا المشهد قبل اليوم بسبع وعشرين سنة وها هو ذا يشهده اليوم.

وما كان ما يراه من عمل الذاكرة أو صنع الخيال، ولكنّه من صنع الحقيقة، قُضَاةٌ وشُرَطٌ وجمع من الأحياء قد رُكّبُوا من لحم وعظم فهم يتحركونَ، وضَحَ ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضي في أبشع ألوانها وأروع مظاهرها، وأشكل عليه الأمر فأغمض عينيه وصاح في أغوار نفسه: إنَّ هذا لن يكون!

ولعبت به الأقدار، وأرته من تهاويلها ما زاد في خبال عقله حتى كاد يُخالَطُ فيه، فرأى كأنَّ هناك رجلًا شُقَّ منه، وقد تواطأ الناس على أن ذلك الرجل لم يكن غير «جان فالجان».

ثم رأى، ويا هول ما رأى!

رأى شِبْهَ مَسْرَحٍ قد قام فيه شَبَحُهُ بتمثيل أبشعِ أطوار حياته.

وقد أُخِذَتْ لذلك التمثيل عُدَّتُه، فكان يرى نفس المشهد في نفس ساعة الليل التي حوكم فيها، وكأنَّ القضاة هم قضاتُه، وكأنَّ الأحراسَ هم الأحراسُ، والحضور هم الحضورُ إلا أنهم قد رفعوا فوق رأس الرئيس صورَ المسيح، ولم تكن تَزينُ قاعاتِ الجلسات في عهد محاكمته، فحوكم لشقْوته في يوم لم تشهده عينُ المسيح.

وسقط على كرسيّ كان خلفه سقوط الحجر فَزِعًا من أن تقع عليه العيون.

وأُغيث بشبه عمود من الأوراق المكدّسة فوق منضَدة القضاء، فاستتر به فبلغ أمنيته، وجلس يَرَى من حيث لا يُرَى، ثم جعل يتمكن من نفسه شيئًا فشيئًا حتى وضحت له الأمور على حقائقها وخرج من الذهول إلى الرشد.

وكان همه أن يرى «جافير»، فرَمَى بصَره بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد، وأعانها ذلك الظلام الذي لم تُرَقِّقْ من حواشيه تلك السُّرُجُ.

وساعة دَخَل كان المحامي قد فرغ من دَفْعِه، وَشَحَذَ الأسماعَ إلى الإصغاء، وقد مرَّت على مخاصمة المتهم ثلاثُ ساعات، والحضور يَرَوْنَ أمامهم رجلًا ينوء شيئًا فشيئًا بثقل ذلك الشَّبَه الغريب الذي أوشك أن يَحِلّ في لباسه.

ولقد كان الرجل مجهولًا، كأن أحَدَ أولئك البائسين الذين تنتشرُ على وجوههم طبقات من البَلَه أو مِنْ تَصَنُّع البَلَه، فهو إما أن يكون من أشد الناس بَلَهًا أو مِنْ أوفاهم قسطًا في الذكاء. كان أُفُقيًّا[1] قد أخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة في بستان «بيرون». فيا ترى من هو هذا الرجل؟

جرى التحقيقُ، وشهد الشهود، وتألّقتْ فجاتٌ مِنَ النور في ظلماتِ ذلك الأُفق! أفق التحقيق.

وقال الاتهام: إننا لم نقع على سارق هيّن الأمر يختلس الثمر أو أحَد أبناء السبيل، ولكننا قد ظَفِرْنا بمجرم فارٍّ، وقبضنا على شاطر عيّار[2] من قُطّاع السبيل، وفاتك من شر الفُتّاك، ذلك «جان فالجان» الذي جَدّ الشُّرْطَةُ في تعقّبه منذ عهد طويل.

ذلك الذي استوفى عُمْرَ العقاب في سجن تولون، وقَطَع يوم سُرّح منه السبيلَ على غلام من سكان «سافواي» اسمه «بيتي فيرجي»، وقد دخلتْ جريمته تلك تحت طائلة المادة 383 من قانون العقوبات، وإنا لَنُرجِئُ أخذهُ بها حتى يثبت لنا شَخْصُهُ.

وقد ركب هذا الفاتكُ جريمةً جديدة فهو إذًا ممن تعوّدوا الإجرام، فخذُوه اليومَ بجريمته الجديدة!

---

(1) يضرب في الأفاق.

(2) الشاطر: اللص.

وكانت عواملُ الدهش تنتاب المتهمَ أمام هذه التُّهَمَة وذلك الإجماع من الشهود.

وتبدرُ منه بوادرُ من الحركات والإشارات تأويلُها النكرانُ، فهو وإن خانه النطق أو تَعَصَّى عليه الكلام فقد قام في جسمه من فَرْعِه إلى عَقِبِه خطيبٌ ينادي: إني مأخوذ بجريمة غيري، وآفتي في ذلك شَبَهٌ غيرُ ميمون.

وقد وقف وقفةَ الأبله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود قد اصطفت للنزال، وقد قبضتْ عليه يد لا تُفلته، وأنشأ القضاةُ ينسجون له مستقبلاً من خيوط الوعيد.

وغَبَرَتْ تمشي إليه التُّهَمَة على جسرٍ من ذلك الشبَّه المشئوم، وكان قَلَقُ الجمهور عليه أشدَّ من قلقه على نفسه، فلبثوا يتوقعون الحكم بالإدانة، ويطالعون الموت من ثنايا ذلك الحكم.

فيا تُرَى من كان ذلك الرجل ومن أيّة طينة قد رُكّبت تلك البلاهة؟ أتنزلُ البلاهة بالناس إلى هذا الحد، أم كان ذلك من صنع المكر والخداع؟ أتُراه قد جاز حدود الذكاء أم نزل إلى أحطِّ مراتب البله؟

تلك أسئلةٌ قد شَطرَتْ الحضورَ شطرين[1]، وسرت عدوى ذلك إلى المحكمين، فقد كان من أمره ما يزعج وما يَشْغَلُ البالَ، وما كان العجب من سوء حاله، ولكنّه كان من غموضه. جَوَّدَ المحامي في الدفع، وتأنَّق ما شاء في تخيّر اللفظ وكان يخطب بلغة الأقاليم، وهي لغة قد ألفتْها المحاماةُ زمنًا طويلاً تزعم أنها اللغة البليغة، وجرى المحامون عليها أجيالاً في باريس وفي ضَواحيها من المدائن، وقد آلت اليوم إلى لغة دراسية ولَعَ بها الخطباء من أرباب المناصب كرجال النيابة وأشباههم، رَاقَهُمْ منها لفظٌ يرنّ في الأذن رنينًا يمازجه الْجِدّ، وأُسْلوبٌ يمشي إلى السمع مشية تصحبها الجلالة. فكانوا إذا ذكروا الزوج، قالوا البعل، والزوجة، قالوا الحليلة، والملك، قالوا: ربُّ التاج والصولجان.

وإذا ذكروا، باريس، قالوا: أُمُّ الفنون ومهدُ المدنية. فالمدعي العام في لغتهم- خطيب الاتهام المصْقَع، والمرافعة - الصيحات التي تسمعها المحكمة، وعصر لويس الرابع عشر- العصر الكبير - والأسرة المالكة- دماء ملوكنا

---

(1) قسمت آراءهم قسمين، فالشطر: النصف.

الكريمة - والقائد - الجنديُّ العظيم - وخطأ الصحف السيَّارة- الكذب الذي تَنْفُث سَمَّهُ في أنهارها.

بدأ المحامي دفعه بتفسير سرقة التفاح، وصَعُبَ عليه أن يمرّ فيه بذلك الأسلوب الرائع، ولا عجب فقد وقع ذلك «لبوسيه» نفسه، فقد أُرْتِجَ عليه وهو يؤبّنُ ميتًا عظيمًا، ففزِعَ إلى الاحتماء بوصف دَجَاجَةٍ سنَحَتْ له، وخرج من مأزقه ذلك بين التهليل والإعجاب خروجَ الظافر.

أثبت المحامي أنه لم يقم دليلٌ محسوس على سرقة التفاح لأن المتهم لم تأخذه عينٌ وهو يظْهَرُ[1] الحائط، ويعالجُ كَسْرَ الفرع، ولكنه فُوجئ وهو يلتقط ذلك الغُصَين «وقال الغصين تهوينًا للأمر»: واعترف بأنه وجده مطروحًا على الأرض فالتقطه، ولم تأتونا بما يَنْقُضَ ذلك، ولعلّ أحدَ السابلة قد مرَّ بذلك البستان فتسوَّر الحائط واقتضب ذلك الفرع ثم أحَسَّ خطرًا فألقى به على الأرض ونجا بِحُشَاشَة نفسه.

لقد وقعت السرقةُ، ولكنّ المتهم لم يكن بصاحبها، إنكم قد أخذتموه بسابقة أمره لأنه ممن تعوّدوا الإجرام، «وفاتَهُ أنّ ذلك الأمر الذي سَلَّمَ به في عُرضِ دفاعه لم يبلغ في التحقيق مبلغ اليقين» فجاء ذلك التسليم ويلًا على المتهم، ثم مضى في دفعه وقال: إنه كان مقيمًا في «فافرول» يرتزق من تشذيب الشجر. وحقيقة اسمه «شان ماتييه» وأحسبهم قد حرفوه إلى «جان ماتييه». ثم مرّ بشهادة الشهود مَرًّا ولم يدفعها، وكان يتكئ في أقواله على إنكار المتهم حتى انتهى إلى قوله: فلو سلمنا أنه هو «جان فالجان» فهل يقوم هذا دليلًا على أنه سارق التفاح؟ إن هي إلا قرينة من القرائن، وما أبين ما بينها وبين الدليل القاطع.

لقد أساء المتهم إلى نفسه بذلك الإنكار المطرد فأنكر كل شيء - أنكر جرائمه وشخصيته وكلّ ما صُوّب إليه في ماضيه وحاضره، ولو أنه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عَطْفَ القلوب.

نَصح إليه المحامي أن يُقْلع عن ذلك الإنكار فأبى وأصرَّ، وظنَّ أنه يخرج من تَبَعة كلّ شيء إذا هو أنكر كلَّ شيء، ولا عجب فقد كان بليد الذهن، ومرَّ به من صنوف

(1) يعلو ويقفز فوقها.

البلاء في السجن وبعد السجن ما يبلّدُ الذهن السليم، على أن طريقته التي جرى عليها في الدفع عن نفسه لم تكن مُبرِّرةً للحكم عليه. وختم المحامي دَفْعه بالتضرع إلى المُحَكمين أن يُنْزِلوه منزلة الفارّ من السجن لا منزلة المجرم العائد.

وردّ المدَّعي العام على المحامي ردًّا رقَّ مبناه وخَشُنَ معناه، شأنَ أمثاله من المدَّعين، فأثنى على صدقه وأطرى منهجه، وعَرَفَ كيف ينتفع بذلك الصدق، وأخذ المتهمَ بنزول[1] محاميه عن التمسك بإنكار شخصيته، وسجّل عليه ذلك النزول، فأضاف إلى الاتهام حجة قد دعَّمتْ من حُجَجِه وتدرج في قوله بلباقة حتى وقف على منبع الإجرام، وأنْحَى باللوم على تجرد المدرسة الروائية من روح الشرف، وكانت إذ ذاك في فجر ظهورها وقد دعاها النُّقَّادُ في الصحف بالمدرسة الجهنمية، وعَزَى- وهو على شيء من الحق- جَرِيمَةَ «جان ماتييه» أو «جان فالجان» إلى تأثير ذلك الأدب الخلَّاب الذي راع العقول.

وانتقل بعد أن قضى لُبَانَتَهُ ونضبت موارد القول إلى «جان فالجان» نفسه فأفاض في وصفه إفاضة كانت أشبه شيء بما جاء في قصة «تيرامين»، ولم يكن لذلك القول مكان في تلك المأساة ولكنّه أسلوب طالما لجأتْ إليه البلاغة القضائية.

وما زال يَقْرَعُ الأسماعَ بتلك القوارع حتى أدخل الرعب على نفوس القضاة والحضور، ومرَّ المدعي في ردّه بتلك الكلمات الخلابة التي استثارت في صباح المخاصمة حَمَاسَ الصحيفة الوحيدة التي كانت تظهر في سماء تلك المقاطعة.

وكان مما قال في «جان فالجان»: رَجُلٌ شأنه ذاك. طريد جوَّال، لا مرتزق له، تَعَوَّدَ الإجرام، ولم تُفْلِح السجونُ في تقويم اعوجاجه وتنقية نفسه، فلقد جنى يومَ خرج منها على الغلام «بيتي فيرجي».

وقُبِضَ عليه بعد ذلك متلبّسًا بالسرقة على قيد خطوات من الحائط الذي ظَهَرَهُ وفي يده ما سرق، فأنكر التلبُّسَ والتَّسوُّرَ والسِّرقَةَ وأنكر حتى شخصيَّته، وفي يدنا مائةُ دليلٍ ودليلٌ على ذلك ولا نريد سَرْدَهَا.

---

(1) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه فإن التنازل لا يكون إلا في ميدان القتال أي بين اثنين.

دع أربعة من الشهود على رأسهم «جافير» كبير الشرطة ولا تسألوا عن نزاهته، وثلاثةً من أخدانه في الإجرام، فكيف يدفع إجماعَهُم على معرفة شخصه، إنْ هو إلا رجلٌ جامدُ الشعور غليظُ الكبد.

وقد كان المدّعي يخطب والمتهم مُلْقٍ بسمعه وقد فَغَرَ الدهشُ فَاهُه ونال منه العجب مما يسمع- وكان يحرّك رأسه يمنةً ويسرة كلما اشتدت لهجةُ الاتهام في تلك المواطن التي تَعْجزُ فيها البلاغة عن إمساك سبيلها، فيترامى بموجات من سبّ وتحقير، كانت تَلُفُّ المُتهمَ لَفَّ العاصفة، وكان في حركات رأسه تلك، ضربٌ من احتجاج فصيح في صمته، بليغ في حزنه.

وقد لفت المدعي القضاة إلى ذلك الموقف موقف البَلَه الذي أخذ المُتّهَمُ نفسَه بتمثيله ليخدع القضاة ويستنزل الرحمة، فلم تَجُزْ حيلته علينا وكشف لنا عما كان يَخْبَؤُهُ في غور قلبه من خبث لا أمد له، وختم قوله بطلب الجزاء العادل.

ثم وقف المحامي وهنأ المدعي، وأطرى خطبَتَهُ التي جازت حدّ الإعجاب ثم ألقى بكليمات حَضَرَتْهُ وأخذ يتضعضع حتى فَقَدَ كُلَّ تُكَأَةٍ له، وحتى شعر كأنّ الأرض تميد تحته ميدَانًا.

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأومأ الرئيس إلى المتهم بالوقوف، وسأله السؤال المألوف، أعندك ما تقول؟ فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع، فأُعيد السؤال، وأظنّه سمع في هذه المرّة، فقد رُؤى فَهْمُه في عينيه وكان كمن استيقظ من سُبَات. فجعل ينفض عنه الكسلَ، ويدور بنظره يُحَدقُ في الحضور حتى وقفتْ عينه على المدعي العام فانفجر بالكلام انفجار البركان، وقد كان الكلام في فيه يكاد يقتتلُ اقتتالًا، يستبق الخروجَ بعضه البعض.

كنتُ عاملًا في صناعة النُّحاس في باريس لدَى السيد «بالو» وكان العمل شاقًا، يَعْمَلُ العاملُ طرفي النهار في هواء طَلْقٍ في أفنية البيوت، أو حُجَر مستطيلة سقوفها من الخشب، ولا يُتاحُ له أن يعمل مرة في مصنع مُقْفَلَ لَا يأْذَنُ للهواء.

فإذا كان الشتاء، ووجد العامل منَّا مَسَّ البرد وتخوّف على أعضائه اليَبَسَ، نزع إلى تحريكها فترة من الزمن التماسًا للدفء، فيُحْفِظُ[1] هذا أصحابَ المصنع علينا ويقولون إنه وقت ضائع. وما ظنُّكَ بعامل يَصْهرُ الحديدَ وهو على أرض من الثلج، إنْ هذا إلّا فناء عاجل، فترى العامل وقد أُخْلَقَ كما يُخْلِقُ الثوبُ، ولبس في صباه لباس الهَرَم.

ولا يكاد يدرك الأربعين حتى تدركه السّنّ فَتُتْزَفُ قُوَاهُ ويُرْغَبُ عنه ويَمْسِي سُخْرِيةً لشرار العمال، فَيَنْبِزُونَهُ بأقبح الألقاب، فكانوا يدعونني وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الأبله والعجوز والعاجز.

وكانت وظيفتي في يومي ثلاثين صلديًا، وما حَطّ من أجري في دعواهم غيرُ السنّ، وكانت لي ابنة تكدح هي الأخرى في طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس، فكان جَهْدُنا يَفيءُ علينا بعصارة تمسكُ الحياة.

تبذل يومها في الكدّ ما تتقي المطر بسقف يحجبها أو ثوب يسترها، جاثمة في مهابّ الأنواء، وكان عليها أن تغسل ولو جَمَدَ الماء.

فإن من الناس من لا يجد لباسًا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله، فلا يزال قائمًا على يديها ينجزّها، فإذا أنس منها تريُّثا أو وجد تعللًا، عدل بالثوب إلى سواها.

فما فتئت المسكينة تطوي ساعاتها مُضطربة في المغاسل بين الحارّ والبارد - دع ما كانت تعاني من مضارّة زوجها لها، حتى أتى على نفسها الشقاء.

ثم أمسك عن الكلام وقد كَانَ يَهْدِرُ بصوت جهير أبَحّ أجَشّ، وكُنتَ تطالعُ في جفوة لفظه وثورة قوله، سلَامة الضمير ونقاءَ الْجنان.

وقد انتابه فُواقٌ[2] كان يحبس أنفاسه، فجعل يستعين على تأدية ما في نفسه بحركات كنتَ تخاله معها حَطَّابًا يشقّ جِذعًا من الجذوع.

وما كاد ينتهي حتى أغرب الجمهور في الضحك، فلبث ينظر إليهم وهو يجهل

---

(1) يغضب.

(2) الزغطة.

مَثَار ذلك – وما نَشِبَ أنْ فعلَ شَرْوَاهم[1] وشاركهم في ضحكهم، فكان مشهدًا مؤثرًا تعلوه الكآبة.

فصاح الرئيس وكان يقظًا رحيمًا، فذكَّر المحكمين أن السيد «بالوا» الذي فَزَعَ المُتَّهَمُ إلى شهادته لا يُعْلَمَ له مقرٌّ منذ أفلس واختفى.

ثم التفت إلى المتهم وقال له: أعرني سمعك، واعلم أنك في موطن أنت فيه أحوجُ ما تكون إلى التفكير، فقد انصبَّتْ عليك الشبهات، وقامت حولك دلائل لا تَلْبَثُ أنْ تَجُرّك إلى سوء المصير، فأجب إجابة صريحة عن أمرين: هل ظَهَرْتَ حائطَ البستان؟ واقتضبت فرع التفاح؟؟ وهل أنت «جان فالجان»؟

فحرك رأسه حركة تُعْرِبُ عن فهم ما أُلْقِي عليه، واتجه إلى الرئيس وقال: أمّا عن الأمر الأول، ثم سكت وأَلْقَى بنظرة على قلنسوته، وأخرى على السقف، فحمِي المُدّعي العام وقال له:

ويلٌ لكَ ما لكَ لا تجيب على ما يُلْقَى عليك، إنَّ اضطرابك لَيُدِينُك فلسْتَ بـ«جان ماتييه» كما تحاول أن تكون، وإنما أنت ذلك المجرم الفارّ «جان فالجان» فقد ذهبتَ إلى «إفرون» ووُلدتَ في «فافرول» وكنتَ بها مُشَذِّبًا للشجر، وظَهَرْتَ حائطَ بستان، واقتضبتَ منه فرعًا من التفاح، وللمحكمة تقرير مصيرك.

وكان المتهمُ قد أهوى على مقعده تخاذلًا، والمدعي يخطب حتى إذا انتهى من خطابه استوى قائمًا وصاح به:

مَا أَخْبَثَكَ أيُّها الرجلُ! وهذا كلُّ ما أُريد أن أقوله لك، وقد كان يُعْوِزُني القول.

لستُ من السَّرَقَة، ولا أنا بذلك الرجل الذي يصيب ما يتبلّغ به في كل يوم.

إنني أتيت من «إلِيّ» فخرجت أضرب في البلاد غِبَّ سماءٍ، وقد كسا الغيثُ وجوهَ الأرض ببساط من الرمل الأصفر، هاجه إلحاح السّيل من بطون المناقعِ[2] وطَمَرَ به الزرع حتى ما تقعُ العين عَلَى غير أعواد دقيقة من الحشائش على عِطْفَيْ الطريق.

---

(1) أي مثلهم.

(2) المستنقعات.

وكنتُ التقطتُ من الأرض فرعًا مهشومًا به تفاح - الْتَقَطْتُهُ وما كنت أدري أنني ألْتَقِطُ الشقاءَ، وقد لبثت في السجن ثلاثة أشهر وأنا أُنْقَلُ من مكان إلى مكان وهذا مبلغ ما عندي من القول.

إنهم يرمونني بالتهم ويطلبون منّي دفعَها، ويدفعُني الحارسُ على طيبة فيه إلى الكلام، يُغْريني بذلك همسًا، وأنا لا أدري كيف أفْصح عما في نفسي. إنني لم أُصِبْ من العلم ولم يُثَقِّفْني مُثقَفّ، فأنا فقير الإدراك ولكنّهم قد أغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة أمري.

أُفّ لكم لقد ذهب بكم المكر إلى حد انقطع بمعرفة المكان الذي وُلدتُ فيه. علَى أنّي لا أزال أجهل مولدي.

وليس لكل من يَهْبط إلى هذه الدنيا بيت يولد فيه، ولو تَهَيأ ذلك لَلانَ العيشُ وطابت الحياةُ، وأكبر ظني أنَّ والِديَّ قد كانا من أولئك الذين يعيشون في الطرقات والمسالك.

وَجُلُّ ما أذكره أنني كنت أدْعَي وأنا حَدَثٌ «بالصغير»، واليوم أدعى «بالشيخ»، ولا أعرف لي اسمًا غير هذين، فأوّلوا قولي ما بدا لكم أنْ تؤوّلوا.

ولا أكْذِبُ الله فقد كنت في «الأفرون» وكنت في «فافرول»، وليس من الحتم أن من كان فيهما يكون من أهل السجون، لقد أعْنتُّموني بترّهاتكم فعلَام يتعقبني الناسُ كما يتعقّب الموتورُ واتره.

فاتجه المدعي العام إلى الرئيس وقال: لقد أحكم المتهم تمثيلَ ما أخذ نفسَهُ به من التبلّه، يحاول إيهامنا أنه أبله، ولكنّه يعالج المحال بذلك الإنكار، وأظن أن المحكمة لا ترى بأسًا في مواجهته بالشهود مرة أخرى، وسؤالهم على مسمع منه.

فقال الرئيس: إني أُذَكّر المدعي العامّ أن «جافير» وهو كبير الشُّرْطة قد دعاهُ عمَلٌ من أعماله في المقاطعة المجاوِرة فأذِنّا له بعد الشهادة، وكان ذلك بين سمع المدعي وبصره والمحامي عن المتهم شاهد غير غائب، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض.

فقال المدعي: لم يغب عني ذلك، ولكني أذكّرُ المحكمين أن «جافير» قد شهد

قبل ذهابه شهادةً لا يزال أثرها في النفوس و«جافير»، رجلٌ قد تَعَالم الناسُ صدقَه ونزاهتَه، وإني لملقٍ عليكم بما قال.

لست في حاجة إلى إقامة البراهين المحسوسة أو الإدلاء بالحجج الملموسة فإني أعرف هذا الرجل حق العرفان، فما هو «بجان ماتيه» كما يزعم، وإنما هو «جان فلجان» ذلك الفتَّاك العيَّار والمجرم الأثيم - سُرِّحَ من السجن بعد أن انطوى أجَلُ عقابه، فخرج منه والعدل في أسف على خروجه. لقد قطع في السجن تسعة عشر عامًا عالج في مداها الهروبَ مرارًا، وسطا بعد ذلك على غلام صغير، ثم ظَهَر حائط بستان، وأكبرَ ظني أنه سرق آنيةَ ذلك العابد الكريم ليلة آواه في مدينة «دني»، وأذكر أنني رأيته في سجن تولون أيامَ كنت أقوم بعمل الشُّرْطَة هناك. فأنَّا به أعْرَفُ من أمه التي ولدته. وفعلتْ تلك الشهادة في نفوس الحضور فعلها، وألحَّ المدعي على أثرها بطلب الشهود، فألْقى الرئيس كلمةً على أحد الحجاب فانطلق يعدو، وما هو إلا أن غاب حتى فُتِحَ بابُ قاعة الشهود ورَمَى الحُضُورَ برجلٍ بين رجلين، وإذا الحاجبُ ومعه حرسيّ من الأحراس يقودان «بريفيه» أحد الشهود الثلاثة، وكان من عُتَاة الأشرار، وقد كَرِهَ الحاجبُ أن يصحبه وحيدًا فاستظهر[1] عليه بأحد الأحراس، فدخلوا وقلوب الحضور تَخْفِقُ خفقة قلْبٍ واحد.

وكان «بريفيه» مجرمًا عريقًا قد جازَ الستين تلوح عليه سيما الأنذال، وتَردُ عليك منه سَحْنَةُ المتهالكين على ذات[2] اليد، وهما خَلَّتان قد تكون بينهما رَحِمٌ، وقد غَيَّر منه ما كابده في السجن من الأذى حتى قال الموكَّلون به: إنه يُريغ[3] أن يكون رجلًا نافعًا، وأثنى المتصدقون على خلال تعبده ولكن يجب أن نذكر أن ما ظهر من الانقلاب في طباع هذا المجرم إنما وَقع في عهد العودة، عوْدة البربون. فقال له الرئيس: «بريفيه»: إنك رجل قد ركبتَ من المُنْديات ما سجّله عليك القضاء، فأصبحت غيْرَ أهل للْحَلف غير أنك وإن جَرَّدَتْكَ من ذلك يَدُ العدل، فقد أبَتْ رحمةُ الله أن تُقْفِرَ نفسكُ من الشرف والإنصاف، فحَبتْها مزْقَةً منهما، فإنا أستحلفك بما بقي في نفسك من ذلك الْحِباء إنْ كان له كما أرجو بَقِيَّةٌ، وأُريدك عَلَى أن تتبصّر قبل الجواب في هذه الساعة الحاسمة، فكلمةٌ منك تَطيحُ بحياة هذا الرجل، وأخرى

(1) أي استعان. (2) المادة. (3) أي يحاول.

منك تُنيرُ لنا منهج العدل، ولا يَضيرُكَ أن تخرُجَ من موقفك هذا، إذا بدا لك أنك لم تكن على الحق. ثم صاح بالمتهم أنْ قِفْ وقال «لبريفيه»: انظر إليه واجمع أَشْتَات ذِكْرَيَاتك وانْطِقْ بوحْي نفسك إذا كنت لا تزال مصرًا على أن هذا الرجل لم يكن غير «جان فالجان» رفيقك في سجن تولون. فأجاب «بريفيه» وقد ألْقى نظرة على الجمهور: إني أول من عرفه فهو «جان فالجان» رفيقي في سجن تولون.

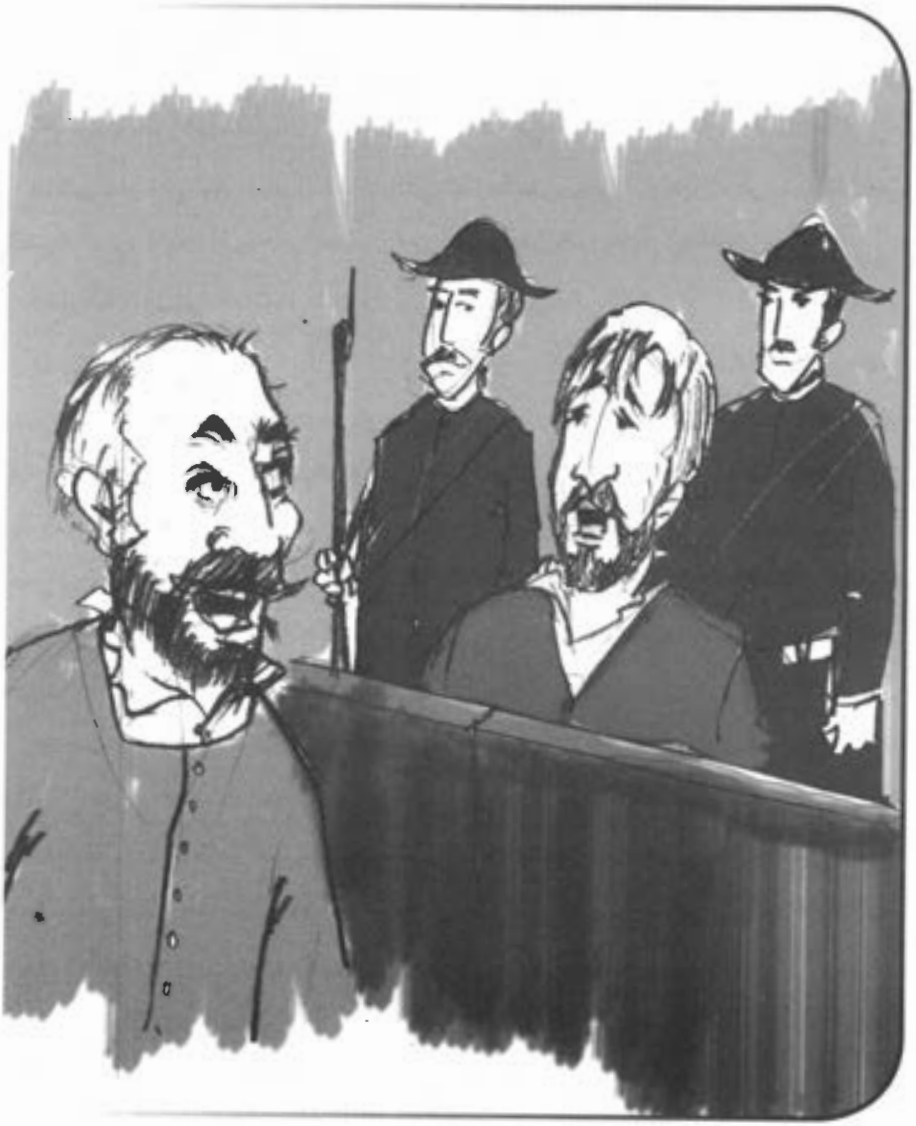

دخل فيه سنة 1796 وخرج سنة 1815، وقد سُرِّحْتُ بعدهُ بعام واحد، وإني أراه يَتَبَالهُ مُنْذُ اليوم، ولعلّ ذلك من فعل السنّ، ولقد كان في السجن ساهي الطرف كثير الإطراق. فأومأ الرئيس إليه بالجلوس ولَبِثَ المتهم واقفًا.

وجيء بالشاهد الثاني «شنيل ديفيه» وكان لا يزال في لباس المجرمين وقد أُشْخِص من السجن للشهادة.

وكان قصيرًا خفيف الحركة، ضئيلًا، كثيرَ تجاعيد الجبهة، أصفر اللون، حادَّ الوجه، إذا رأيتَه رأيتَ شبْهَ محموم، نحيلَ الأعضاء، مضعوفَ الجسم قد رُكِّبَتْ في رأسه عينان تقرأ فيهما آياتِ القُوّة، وكان رفاقُه في السجن يلقبونه بـ«أنكرُ الله».

فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التي ألقاها على سابقه، وحين ذكّره بما كان من ماضيه الذي سلبه حتى حقّ الحلف رفع رأسه وحّدق في وجوه الحضور.

فقال له الرئيس: ألَا تزال مصرًا على معرفة هذا الرجل؟

فقهقه الشاهد وقال: كيف لا أعرف رجلًا سُلِكْتُ معه في سلسلة واحدة بضع سنين. وجيء بالشاهد الثالث «كوش باي» وكان مجرمًا قد حكم عليه بسجن الأبد وهو فلّاح من «لورد»، كان يرعى القطعان في رؤوس الجبال، ثم حَال إلى قاطع سبيل، وكان في معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوقُ المتهم بَلَهًا، وهو من أولئك الذين بُنِيَتْ طبيعتُهم بناءَة الضَّواري، فنَبذَهُم المجتمعُ وقذف بهم في نحور السجون. فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية وألقى عليه قولًا ثقيلًا ثم سأله السؤالَ المعهود. فأجابَ المتهمُ هذا هو «جان فلجان» وكنا ندعوه لفرطه مُنَّته[1] «جان لجريك».

ففعلت تلك الشهادةُ فعلَها في الحضور، وزاد في أثرها ذلك الوُضُوحُ الذي ألْبَسَهَا لباسَ اليقين. فضاقت القاعةُ بأهلها، وسرتْ فيها همساتُ الأسَف على المتهم، ثم جعلت تشتدّ وتمتدّ كلما ألقَيت شهادةٌ من تلك الشهادات. كل هذا والمتهم مُلْقٍ بسمعه، وهو ساهِمُ الوجه سادرُ النظر، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرّك عند انتهاء الشهادة رأسه ويقول على مسمع من الحرس: شَيءٌ حسن.

فقال له الرئيس: ما قولك؟

---

(1) المنة القوة.

قال: شيء حسن!

فَعَلَا الضجيجُ في القاعةَ، وضجَّ حتى المحكّمون وقالوا: هلك والله الرجل.

فصاحَ الرئيس بالحاجب أنِ ادْعُ الناسَ إلى السكينة، وعلى أثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس، وارتفع صوت ينادي انظروا هنا أيُها الشهود. فملكَ السامعين الرَّوْعُ وهَالهُمْ ذلك الصوتُ الجهير الذي كان ينبعث من ذلك الحلْق الْحزين. فالتفتوا إلى مَصْدَرِهِ فإذا بهم يرون رجلًا قد خرج من صفوف الخاصّة الجالسين خلف القضاة، ووثب إلى وسط القاعة، وما هو إلا أنْ تراءى حتى صاح الرئيس والمدعي العام، وصاح لصياحهما عشرون صوتًا: السيد «مادلين».

وما كان إلا هو وقد أضاء وَجْهَهُ المصباحُ المنصوبُ على مِنْضَدَةِ الكاتب، فوقف وقلنسوته في يده، وهو في لباس لم يتطرّق إليه العبث.

وكان أصفرَ اللون قد سرت به هِزّة وحالَ لونُ شعره، فقد دخل مدينة «آراس» وشعرُ رأسه أرمدُ[1] فلم يكدَ يطوي بها ساعة حتى صاح به المشيب، فشاب الرجل في مدى ساعة واحدة. فاشرأبَّتْ الأعناق، وتطلعتْ النفوس، وشُحِذَ الشُّعُور، ومرّت بأهل القاعة فترةٌ من الْحيرة، وحُقَّ لهم أنْ يحاروا، فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة، ورأوا أمامهم رجلًا هادئ الطبع ساكن الجأش، فلم يقع في نفوسهم أنّ هذا الواقفَ المتمكنَ من نفسه هو صاحبُ تلك الصخرة المُرَوّعَة.

ولم يكن أجَلُ حيرتهم طويلًا، فقد اتّجه الرجل إلى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم: أتنكرون هذا الوجه؟

فعل ذلك قبل أن يَنْبِس الرئيس بكلمة، أو يتمكن الحرس من الحركة.

فَبُهِتَ الذين شهدوا وأنكروا بإيماءَة من الرؤوس، ثم التفتَ الرجل إلى المحكمين وقال: سَرِّحوا هذا المتهم وخذوني فأنا «جان فالجان».

فعُلّقَتْ الأنفسُ وأخذت القومَ رجفاتُ الدَّهش، ثم عَلَاهم خشوعُ البِلى، وكأنَّهم عوجلوا بقارعة سماويّة، فملكهم الفزعُ الأكبر، وكذلك تفعل جلائلُ الخطوب وعظائمُ الأمور!

---

(1) أي في لون الرماد.

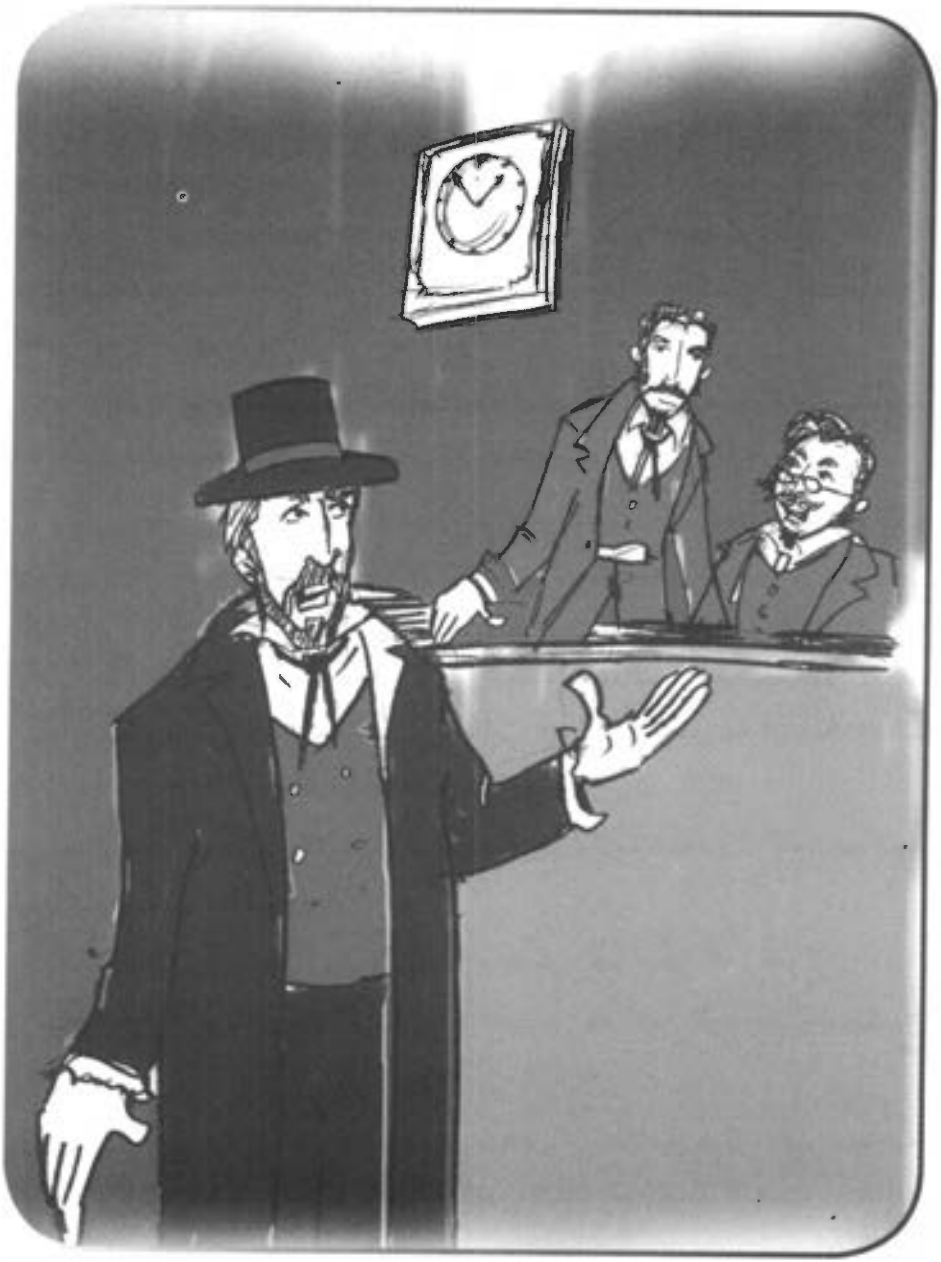

وانتشرت على وجه الرئيس طبقةٌ من العَطْف والحُزْن معًا، فرمى المدعي بنظرة عَجْلَي، وهَمسَ في آذان الجالسين معه للقضاء، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور: أبغوني طبيبًا - وقال المدعي: هذا السيد «مادلين» قد نزل به ما نزل وإنَّا لنَجِدُ[1] له وَجْدًا شديدًا، ونعلم أنه نبيل القدر زكيّ المشاعر، فإذا رأى الرئيسُ أن يأمر بحمله إلى داره. فابتدر «مادلين» الكلامَ وقاطع المدعي بصوت يمازجه السلطان، ونَطَقَ بكلمات نُثْبِتُهَا هنا ولا نَخْرِم منها حرفًا، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودوَّنها على أثر انطوائه، وقد مَرَّ بها أربعون عامًا وهي لا تزال في آذان من بقي حيًّا من أولئك الشاهدين:

أشكر لك أيها المدّعي فما أنا بمجنون كما تزعمون، إنكم على وَشْك أن تَضلُّوا، فسرّحُوا هذا المتهم وخذوني فأنا المجرم الذي تَنْشدون. وليسَ هنا سواي من ينظرُ بغير غطاء، فهاكم الحقيقةَ خالصةً غيرَ مشوبة. إني وقفتُ هذا الموقف لذات الله العليّ وهو حسبي فخذوني، فقد طبت بذلك نفسًا.

إني أردتُ الحسنى فتنكَّرت، حتى أثريت وأصبحت شيخًا «لمنتراي سيرمير» وألقيتُ بنفسي بين الأخيار فلم يفسح لي الحظُّ بينهمُ مكانًا، فجئت وفي النفس أشياءُ لا يسعني سَرْدُها، فلا أُثقِلُ عليكم ببسط ما صنعت في أيام توبتي فإن الغد ببسطه كفيل! إنّي سرقتُ مولاي العابدُ، وسطوتُ على ذلك الغلام الصغير فحقّ لهم أن يَصِمُوا «جان فالجان» بأنه فاتك أثيم، وما كان له الْخطءُ[2] كلُّهُ وإن كان من الخاطئين - وليس لحقير مثلي أن يعترض على العناية أو يُنْصِّبَ نفسهُ لمناصحة الناس، ولا أكذب الله، فإنَّ العارَ الذي عالجت نضحه عن نفسي كانَ أمرًا إدًّا. ولا يفوتنّكم في هذا الموطن أن السجن قد كان لي شرَّ أستاذ فهو يُخبّثُ النفس، ويمزّق شمل الفضيلة، ولقد صدق من قال: إن السجون تَخْلُقُ الأشرار.

فلقد كنتُ قبله فلّاحًا فَدْمًا[3] فأطْلَعَ مني السجنُ شريرًا، وكنت عودًا من الحطب

---

(1) أي نحزن.

(2) أي الذنب.

(3) الفدم الساذج.

فصيرني شُعْلَةً، ثم رَدَّتْ إليَّ الرحمةُ ما سلَبَتْنِيه القسوةُ فنجوتُ بنفسي ولكن بعد الفوت، فإذا دقّ عن أفهامكم ما ألقيه الساعةَ عليكم، فهناك في رَمَادِ المدْفَأةْ تجدون القطعة الفضية التي سلبتها من ذلك الغلام.

«وإليك أيها المدعي أسوقُ الكلام، إني لَيعْرِضُ لي أنك غيرُ مصدّقي، وأقرأُ ذلك في حركات رأسك، فأناشِدُك الله ألا تأخذ هذا المتهم، الويلُ لي، أليْس هنا من يعرفني؟ إني ليحزنني غِيابُ «جافير» ولو كان حاضرًا لوضح الحق»!

ليْس في طوق كاتب أن يصوّر ما كان في كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنّات الأسى التي كانت تَصْحبها عَبْقَةٌ من الحسنى.

ثم انفتل إلى الشهود الثلاثة وقال: «بريفيه» ألا تزال تنكرني؟

فاعترتْ «بريفيه» الرّعْدةُ وجعل يُصَعّدُ فيه بصره ويُصَوّبهُ، ومرّ الرجل في كلامه فقال: وأنت «ياشانيلديوه» ألستَ كنتَ تُدعَى في السجن بـ«أنكر الله»؟ ولي فيك آيةٌ.

حَرْقٌ بكتفك اليمنى، حاولتَ أن تمحوَ به الثلاثة أحرف التي وُسِمْتَ بها فلم يُغْنِ ذلك عنك شيئًا وثبتت الأحرف في مكانها، أرأيتك؟ ألم أقل حقًا؟

قال: بلى.

ثم تحوّل ذلك المسكين إلى القضاة والحضور وعلى فمه بسمةٌ ما ذكرها رائيها إلّا وَجَد لها غمزًا على قلبه، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظَّفَر ومرارة القُنُوط.

فذُهِبَ بأهل القاعة وحالوا إلى عيون تنظر، وأفئدة تخفقُ، فلم تَعُدْ ترى فيها قضاةً ولا مدعين، ولا تلمح أشراطًا ولا مدافعين، وقد أُنْسِيَ كلّ غَرضَه: " نَسِيَ الرئيس أنه جاء للرياسة، والمدعي أنه قام للاتهام، والمحامي أنه مثل للدّفع، والحرسُ أنهم أقيموا للحراسة، فلم ينبِس خَلْقٌ بكلمة، ولم يفزَع ذو سلطانٍ إلى سلطانه!

ولا عجب فإن للمشاهد السامية خواصَّ تملكُ عَلَى رأيها المشاعرَ وتُحيلُ شُهودها إلى نَظَّارة[1] يَخرجُ بهم فرطُ ما هم فيه عن حَدّ الشعور، فلا يكادون يتساءلون حتى

---

(1) المتفرجون.

في أنفسهم عن مأتى ذلك اللألاء الذي يذهب سناهُ بأبصارهم، فهم في داخلهم مأخوذون برائع ما يشاهدون في خارجهم.

وضَحَ الصبحُ، وتكَشفت ظلمةُ الشّك عن «جان فلجان» فأنار ظهُوره السبيلَ، وكشف عن ذلك الْحادث، وأدرك ذلك الْحفْلُ الحاشد ما كان من حقيقة الأمر، أدركه بأسرعَ من خطفة البارق أو نبضة الكهرباءَ. رَجُلٌ يفتدي بنفسه رجلًا آخر، لله ما أنبَلَ هذه النفسَ.

ثم قال الرجل: إنني لا أريد أن أُطيلَ عليكم أمَدَ ما أنتم فيه، فقد عَزَمتُ على الذّهاب لأنهم يأبون أن يأخذوني، وعندي ما يدعوني إلى الرجوع، والمدعي العامُّ يعرف من أنا، ويعرف أين يجدني متى حَلا له ذلك.

قال ذلك وغَبَر يمشي إلى الباب بقدم مطمئنة، فما رُفِعَ صوتٌ ولا امتدت ذِرَاعٌ لسدّ سبيله، مشى وقد حَلّ فيه خفيٌّ من العناية ما حَلّ في إنسان إلا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف.

فلما بلغ الباب وجده مفتوحًا، فالتفت إلى المدعي وقال: أنا رهن أمرك. وعطَفَ قائلًا: أيها الحضور، ألا تَرَوْنَ أني جدير بالرحمة، ولعلي كلما فكَّرتُ في أني كنت على وشْكِ القيام بهذا الصنيع وجَدْتُني حقيقًا بالغبطة.

ثم خرج فَصُفِقَ[1] البابُ كما فُتِحَ، ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له في المجتمع نصيرًا. وعاد القوم بعد فترة إلى أنفسهم، فأمر المحكّمون بتسريح «جان ماتيو» فخرج وهو يقول في نفسه: ما أشَدّ جنونَ هذا الناس، فأنا لا أكاد أفقَهُ شيئًا من جميع ما مَرَّ بي في هذا الحادث.

(1) صفق الباب أي رده.

عَوْدٌ إلى فانتين

تنفّسَ الصبحُ فنامت «فانتين»، وكانت قد سهرت اللّيل كله، ولَزِمتْها الحمّى فحمةَ ذلك الليل، وكانت تلمح من خلال آلامها صُورًا من وجوه السعادة بقربها طفلتها- فانتهزت الراهبة نُهْزَةَ نومها، وكانت قد ساهرتها وخرجت تُهيئ لها جُرْعة من الكينا[1]. وبينا هي عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد ألقى الشفقُ على الأرض ضبابًا يُقَصّرُ فيها قابُ العين، وإذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح.

رأت «مادلين» وهو منها أدنى شيء، فصاحت: أسيدي الشيخَ أرى.

فقال: نعم، وكيف حال المريضة؟ قالت: ليس بها الساعة من بأس، وقد كنا نتوقع لها بالأمس شرًّا، ثم أعلمتهُ علمهَا وقالت: ولولا أنَّ فكرةً رفّهت عنها لما طلَعَ عليها هذا الصباحُ، فقد حَملَتْ غيابَك على الذّهاب لَتفُقِّد طفلتها. ولم تَجْرؤ الراهبة على سؤاله أين كَان؟ ولكنّها لم يغب عنها أن ملامَحهُ لم تكن تنطق بأنه قادمٌ من ذلك الوجه.

فقال لها: أحسنت في تركها على زعمها، فقالت: وما عسى أن تقول لها إذا رأتك وحيدًا؟ قال: إن اللّه يُلهمنا الجواب.

وكان الصبحُ قد وضح نوره، فرأت الراهبة في «مادلين» ما راعها - رأت شعرَه الأرمد قد حال كلُّه إلى شعر أبيض، فصاحت به أيُّ خطبٍ نزل بك فشَيبَكَ.

ثم وافته بمرآةٍ صغيرة كان الأطباء يستخدمونها في التحقق من الموت، يضعونها على فم المريض فتُكَدّرها أنفاسُه إن كَان لا يزال حيًّا، فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة، وقال: حسن.

---

(1) نوع من الخمر.

فجمدت الراهبة في مكانها، وعطف «مادلين» قائلًا: أليس من الميسور أن أراها الساعة؟ فقالت: إنك لم تأت بطفلتها فخيرٌ لها ألّا تعلمَ بقدومك، ومتى جئتَ بها عَلمَتْ من نفسها بأن غيابك إنما كان لذلك، فتنجو المريضة من آلامها، وننجو نحن من نسْج الكذب.

فلبثَ غير بعيد ثم قال بلهجة الجادّ الساكن: أريد أن أراها الساعة فربما كنتُ عَجِلًا - فلم تفطن الراهبة لما كان في كلمة «ربما» من المعنى الغامض الغريب، فغَضَّت من بصرها وقالت محتشمةً: ليدخل سيدي وليعلم أنها نائمة.

فتقدم إلى[1] الخادم بإصلاح باب لم يكن مطمئنًا في مكانه، كراهةَ أن تتأذى المريضة بصريره[2].

ثم دخل مخدعها وهو يُخافِتُ من مشيته، ودنا من سريرها، وفرّج عنها الستائر فإذا هي نائمة.

وكان نَفَسُها يَشْخَصُ من صدرها شخوصًا يبعث الأسى وتلك آية ذلك المرض العُضَال التي طالما فجعت نفوسَ الأمهات السواهر على أولادهن الذين أبْرِمَ فيهم حكم الموت.

وكان هذا التنفّس الشاق يكَدّر ذلك الصفاء العجيب المنبسط على وجهها - ذلك الصفاء الذي كان يبدّل في نومها من مرأى ذلك الوجه- وكان اصفرارها قد بلغ حدّ البياض، وأمست خدودها قرمزيةً، وكانت أهدابُها الطويلة «وهي البقيّة التي بقيت من جمال البكارة والشباب» لا تزال تختلج فوق ذلك الطرْف الساجي.

وقد اهتزَّ جسمها من فَرْعها إلى قدمها، كأنّ أجنحةً خفيَّةً قد رُكِّبَتْ فيه وأوشكت أن تُنْشَرَ للطيران، حتى ليُخَيَّل للناظر إليها أنه يُحِسُّ تَرْويحها وإن لم تقع عليها عينُه.

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يُئِسَ منها، فهي إلى من يُصَوّع[3] للطيران أقرب منها إلى من يَتَهَيَّأ للنزول إلى القبر.

---

(1) تقدم إلى أي أمر.

(2) صوته.

(3) صوع أي تهيأ للطيران.

ألم تَرَ إلى الغصنِ كيف يضطرب كلما امتدت يدٌ لقطف زهره، ألا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها في آن، فهو يُعطي ويمنع في وقت معًا.

كذلك الجسمُ البشري فقد تنتابه تلك الهزّاتُ حين تحينُ الساعة التي تمتد فيها يدُ الموت الخفيّة لاقتطاف[1] الروح.

وقفَ مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعضُ الأنصاب، وجعل يتنقّل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين، ليلة زارها للمرة الأولى، وكان المَنْظَرُ واحدًا في جميع وجوهه إلّا أن شعره في هذه المرة كان قد عمَّه الشيبُ.

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا وأُصبعه على فمه كأنه يأمر أحدًا بالسكوت، ففتحت المريضةُ عينيها وسألته سؤال العَطيف[2] وهي تبتسم «أين كوزيت»؟

قالت ذلك وما أخذها دَهَشٌ ولا استخفها فَرَح فقد كانت هي الفرحُ بعينه، وعجيب أن يفرح الفرح!!

ألقت هذا السؤال «أين كوزيت» وليس في نفْسها ظِلٌّ للشك ولا في خاطرها جَوْلَةٌ للقلق - فألجَم اليقينُ المتجلّى في ذلك السؤال، لسانَ «مادلين» فلم يُحِرْ جوابًا.

ثم مرّت في حديثها! لقد كنتُ عالمة بوجودك رغَم سلطان النوم، وكانت عيناي تتعقبانك أنى سرْتَ- رأيتُ كأنك كنتَ محلقًا في سماء من المجد يُطيفُ بك نورٌ سماويٌّ على أنّي أعاودك السؤال «أين كوزيت» لِمَ لَم تُنمْها بجانبي حتى إذا ما فتحتُ عيني فتحتُها على تلك الطلعة البهيّة!

فأجابها بكلام لا يرتاحُ له العقل، ثم لم يلبَث أن نَسيهُ على أثر إلقائه.

وأغاثه حضورُ الطبيب الذي ابتدرها عند دخوله بقوله: اهدئي فإن ابنتَكِ هنا.

---

(1) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها في شعر الأعشى في الجاهلية وفي شعر جرير في الإسلام فهي عربية بدوية قال الأعشى:

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف

(2) العطيف الهينة اللينة من النساء.

فبرقت عيناها بريقًا أضاء وجهها، وضمت يديها ضَمة تمثَّلَ فيها أجلى معاني التضرع إلى الله وأحلاها، ثم صاحت إليَّ بها، وكانت تظن أنها لا تزال طفلة تُحْمَلُ - وَهْمٌ من أوهام الأمهات مَبعثُه العطفُ والحنان.

قال الطبيب: لم يَحُنْ الوقت فإنك لا تزالين في بقايا علّتك، ولا آمَنُ عليك صدمة اللقاء، فمتى أَبْلَلْتِ[1] جئناك بها، فقاطعته بحماسة لقد شُفيتُ، وأُعيد عليك القول أني شُفيتُ، فياللهِ ما أحمقَ هذا الطبيب فإنه يريد أن يحولَ بيني وبين ابنتي!

فقال الطبيب: أرَأيْتِ كيف غَلَبَ عليك الغضبُ وما دام هذا شأنك فلاسبيلَ إلى رؤيتها أو تملكي صوابَك.

فطأطأت رأسها وقالت وفي صوتها رنة من الأسف: إنها حمقةٌ أرجو أن تغتفرها لي، ولا تُنْزل أمري على الجُرأة عليك فتأخذني بما سبق به لساني، فلقد خرجَ بي ما أنا فيه عن حدّ الرشد، فإن كنت تخشى عليّ مَغَبَّةَ اللقاء فأنا صادعةٌ بأمرك، صابرة مع الرضى، مرتقبةٌ ذلك الوقت الذي يؤذن لي فيه برؤيتها.

على أن رؤية ابنتي لن تحدثَ في نفسي ما تتوقعُ أنت حدوثه، وغايتي أن أحدثها الساعة بعضَ الحديث، لقد رأيتُ الليلةَ صُورًا بيضاء ولمحتُ أناسًا يبتسمون لي، وها أنا ذا أستشعر العافيةَ وأحمدُ الله فقد مسح ما بي من الألم.

ولكن سألبثُ مكاني كأني مريضة إمضاءً لأمرك وإرضاء لهؤلاء الأخوات المقيمات هنا، حتى إذا آنسوا مني السكينة وتيقّنوا من إبلالي جاءوني بابنتي.

جلس «مادلين» على كُرسيّ بجانب السرير فحوّلت وجهها إليه وهي تغالب كَيْدَ الألم ويغالبُها لتظهرَ بمظهر السكينة وتدعو القوم إلى تذليل المصاعب التي يقيمونها في طريقها لرؤية طفلتها.

ولكنها على تجلّدها لم تَقْوَ على الإمساك عن سؤال مادلين فألقت عليه ألفَ سؤال وسؤال.

لعلها سَفرة ميمونة.

---

(1) عادت إليك عافيتك.

لله ما أنبلَ نفسك فقد أنقذت طفلتي.

خبرني بربك أكانت جَلْدَة[1] على المسير.

أتُرَاها تُنكرني عند اللقاء فقد طال عهدها بي.

إن الأطفال كالأطيار لا يكادون يَذْكُرون في يومهم ما رأوه بالأَمس.

ترى كيف كان لباسها وغذاؤها في ذلك النزل؟

لقد كانت تؤلمني ذكرى ذلك في أيام بؤسي أما اليوم فقد أصبحت بفضل حَدَبك[2] عليها قريرةَ العين رَخيّة البال.

ألا يتسنّى لي أن أراها الساعة؟

ألا ترى أنها جميلة؟

ألا تأذن لي برؤيتها؟ وإن لم تفعل فمن ذا الذي يأذن لي سواك؟!

فأخذ «مادلين» يدَها بين يديه وقال لها: إن «كوزيت» مثالٌ للصحة والجمال وستريْنَها بعد قليل فاهدئي واستري ذراعيك بغطائك عسى أن تخفَّ وطأةُ السُّعال.

وكَان سعالها يَزْحَم دُفَّاعُه في حَلْقها كلَّ كلمة من كلماتهَا.

فلم تُبْدِ «فانتين» شيئًا من التململ خشيةَ أن تُزلْزلَ كلُّ آهة من آهاتها تلك الثقةَ التي تُحاول بَثَّها في نفوسهم، فجعلت تَفُوه بأقوال لا تَنُمُّ على الألم.

كل ذلك ومادلين مُمسكٌ بيدها، ونفسهُ تكاد تسيل جزعًا.

خرجَ الطبيبُ وبقيت الراهبةُ في مكانها، وقد خيّم عليهم السكوتُ فمزّقته «فانتين» بصيحة - إني أسمعها - إني أسمعها - ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالإصغاء وعلّقت أنفاسها وجعلت تتسمّع.

كان في الفناء ولدٌ يلعب - وَلدُ البَوَّابة أو وَلدُ من شئت من العاملات.

تلك إحدى المصادفات التي مازالَ الإنسان يَجدها في ثنايا الحوادث المحزنة، كأنما هي جزءٌ مما تُهَيئُه يَدُ الغيب من عُدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث.

---

(1) قادرة على المشي.

(2) الحدب الحنان.

وكان هذا الولدُ صبيةً تذهبُ وتجيء وتجري دفعًا لغائلة البردْ وتلمّسًا للدفء وهي تضحك وتارة تُغني - وكذلك كان.

وأيّ شيء من الأشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من لَعبِ الأطفال.

تلك هي الصبيَّةُ التي سمعتها «فانتين» وظنّتها «كوزيت» وصاحت تلك هي بنيتي وذلك هو صوتها.

وانقلبت الصبيَّةُ من حيث أتت وغاب صوتها، فلبثت فانتين فترةً وهي مُلْقية بسمعها، ثم فارق وجهها الإشراقُ وقالت بصوت سمعَهُ «مادلين»: قاتل الله الطبيبَ فقد حال بيني وبينك.

وبعد قليل عاودَها أملها البسَّام، فأنشأت تحدث نفسها ورأسها مطروح على الوسادة.

سَنُصْبحُ من السعداء، ويكون لنا بستان جميل، تمرح فيه «كوزيت» وتجري على الأعشاب تُطارد الفَراش، فإذا شبَّت وبلغت سنّ التناول[1]، ولكن متى تبلغ هذه السنّ؟. ثم جعلت تعُدُّ على أصابعها وتقول: إنها اليوم في السابعة من عمرها، وبعد خمس سنين يكون لها قِناع أبيض، وتبدو في هندام الفتاة.

لله ما أحمقني فإني أفكر في الشيء قبل أوانه ثم أخذت تضحك.

وكان «مادلين» يُصغي إلى تلك الكلمات وكأنه يُصغي إلى هَبَّات النسيم، وقد غَضَّ بصره وغاص فكره في تأملات لا قرارَ لها.

وانقطعت «فانتين» بغتة عن الكلام فنبَّه ذلك مادلين فرفع رأسه فإذا بها في صورة مُروّعة. وكانت لا تتكلم ولا تتنفَّس وقد قامت في سريرها نَصف قَوْمَة، وبرزت كَتِفُها النحيلةُ من قميصها، واصفارّ وجهها، ووقفت بنظرها على مشهد مروّع في الجانب الآخر من المخدع، واتسعت من الرعب حدقاتها.

فصاحَ «مادلين» ويك، ما بك؟ فلم تجب ولم تحوّل بصرها ولكنّها مسَّت ذراعه بإحدى يديها وأشارت إليه بالثانية أن ينظر وراءه فالتفت، فإذا به يرى جافير.

وإليك ما مرَّ من الحوادث قبل ذلك:

---

(1) التناول المقدس أول حفل ديني تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها.

خرج «مادلين» من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الأول من الليل، وانقلب إلى النُّزل في الساعة التي تهيأ فيها البريد للسفر، فأخذ مقعَدَه فيه وبلغ «منتراي سيرمير» قبل الصباح. وما هي إلا أن احتوته حتى أوْدَع صندوق البريد كتابًا إلى «لافيد» الصراف، ثم انطلق يعود «فانتين».

ولما غادر قاعة الجلسة في «آراس» وعاد الحضور إلى أنفسهم، وقف المدعي العام وجعل يتوجَّع لمادلين على ما أصابه من ذلك المَسّ، وأصرّ على طلبه وقال: إن هذا الحادث الغريب الذي ستكشفُ الأيام عن سرّه لم يُزَلزل من عقيدته ولم يُغير وَجْهَ التهمةَ المصوَّبة إلى «جان ماتييه»، ولكنَّ أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتَها، وسقطت الحُجَّةُ من يده فَتَلقَّفَهَا المحامي واطَّرَدَ له القولُ فقال:

لقد انقلبَ الأمر رأسًا على عَقِب، وأصبح المحكّمون لا يروْن أمامهم إلا رجلًا بريئًا.

وأخذ الرئيس جانب المحامي وانحازّ له المحكّمون فسرّحوا «جان ماتييه».

ولم يكن للمدعي بُدٌّ من أحدِ الرجلين، فطلب القبْضَ على «مادلين» حين أفْلَتَه «جان ماتتيه» ثم كتب على المكان[1] أمر القبض، وخلا بالرئيس لتوقيعه، فتردّد الرئيس بعَض الشيء، وكان على طِيبة نفسه وحِدَّة ذهنه يتعصَّبُ للملكية وقد كَان «مادلين» ذكر أمامهَ يومًا كلمةَ «الإمبراطور» ولم يذكر بجانبها كلمة «بونابرت» فغاظه ذلك وحقدَها عليه، وذكر له لِشوقه تلك السالفةَ فهان عليه توقيعُ الأمر.

وأبردَ المدعي به بريدًا خصيصًا إلى «جافير» «بمنتراي سيرمير» وتقدَّم إليه بالإسراع، وكان البريد فارسًا فذَهب يعدو مُرسَل العِنان. وكان «جافير» قد غادر قاعة الجلسة حي فرغ من شهادته كما قدمنا، وعاد إلى «منتراي سيرمير» واتفق أن هبَّ من نومه ساعة وصلَ البريدُ.

وكان البريد شُرطيًّا من حُذَّاق الشُّرْطَة فأنهى إليه الأمرَ، ووَقَفَهُ بكلمتين على جملة ما مرَّ من الحوادث.

فقام «جافير» إلى إمضاء هذا الأمر ساعة استولى عليه ولو أن أحدًا رآه وهو يَلِجَ

---

(1) أي في الحال.

بابَ الدار التي فيها «فانتين ومادلين» وكان ممن يجهلون بِنَاءَةَ هذا الرجل، لما قام بنفسه أن أمرًا خطيرًا قد حُرِّكه، ولما تبين من وجهه غير لمحته المألوفة[1] فقد كَان هادئ السعي ساكن النفس باديَ الْجدّ وهو يَرْقَى الدرج.

ولكن لو رآه في هذه الساعة أحدُ مُلابسيه الواقفين على غريب طباعه، لذُعِرَ من رؤيته. فقد كان زِرٌّ بنَيقَتِهِ منحرفًا إلى جهة الأذن اليسرى بَدلًا من أن يكون محرَّرًا إلى القفا.

وكانت تلك آية على هياج غريب في نفسه، قد كان الرجل نظاميًّا في واجبه ولباسه الرسمي، فهو لا يترخَّص مع المجرم كائنًا من كان، ولا في إحكام لباسه الرسمي وتَفقُّدِ إزْرَارِهِ من جميع ضواحيه.

فانزعاج الزرِّ من مكانه حادثٌ لا تأذَنُ له بالوقوع إلا فَوْرَةٌ في النفس، كانت أشبه الأشياء بالزّلزال في الأرض.

وكان قد اصطحب أربعةً من الجند وكبيرًا لهم، وأمر سائرهم بالتربُّص في الفناء.

ولما سألَ البوَّابة عن مادلين لم تتردَّدَ في أن تَدُل عليه، فقد أُلِفَتْ أن يسألها عنه الجنودُ وهم شاكو السلاح.

ولما بلغ مخدع «فانتين» أدار المفتاح ودفع الباب لينًا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترقٌ للسمع.

ثم دخل ولو أحسنَّا القول لقلنا لم يدخل.

فقد وقف في حرَم الباب، وقلنسوته عَلَى رأسه وأزرار لباسه الرسميّ مطمئنة في عُراها، وقد علّق في أثنائها يده اليسرى وكان رأس عصاه مُطلًا من خلف مرفقه.

فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد، واتفق أن رفعت «فانتين» عينيها فلمحته وأنذرت به «مادلين».

وفي اللحظة التي التقى فيها النظران، حال «جافير» وهو جامد في مكانه إلى صورة مفزعة.

---

(1) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولكن ملمح النظر أي محل سقوطه.

وما من شعور بشريّ في نفس هذا الرجل هو أقدر على التمثّل في صورة الفزع من شعور الفرَح، وقد طغى عليه فقد قلب سحنته إلى سحناء مارد يريد أن ينقضَّ على طريدته.

وكان يقينه من القبض على «جان فالجان» بعد لأي، قد فَضَحَ ما كان كامنًا في نفسه وبَسَطَ على ظاهره ما كان يضطرب في زوايا باطنه.

وأصبحت الغضاضةُ التي كان يجدها في نفسه حين أخطأ ترسّم الأثر ولم يُصب الشاكلة في أمر «جان ماتييه» وقد محاها زهوٌ دخل في نفسه حين علم أن فِراسته لم تخطئ وأن شعوره لم يخُنه في تعقب «جان فالجان».

وتجلَّت في جبهته الكزّة دمامةُ منظره عند ظفره، فكان ذلك أبينَ ما يقرأُ من آيات الشناعة في سحنة بلغت مناها.

وفي هذه الآونة كان «جافير»، وقد رفعه الفَلَكُ وناجاه الملك، لا يشعر بحقيقة موقفه حقَّ الشعور، لكنَّه لم يخلُ من شعور مبهم بنُجحه وضرورة الحاجة إليه.

فقد كان يمثّل في ذات نفسه تلك القوات العُلويةَ من العدل والحقيقة والنور، وهي تعمل متساندةً على سحق قوّة الشر.

فكان كأنه يُحِسّ أن حواليه مدى لا حدَّ له من السلطان والعقل ونفاذ الرأي والإيمان بإكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعي، وكل ما في ذلك الفَلك من قوّة.

ولا عجب فقد كان يحمي النظام ويستنزل صواعق القانون وينتقم للمجتمع وينفّذُ المشيئة ويُمضي القدر وينهض في المجد نهوضًا.

ولم يَخْلُ نصره وإن كان مبينًا من بقية للتحدّي والكفاح.

وقف في أوج السماء مشرقَ الوجه مزهوًّا وقفة جبّار من طواويس الملائكة تجلَت فيه بهيميةٌ[1] دونها بهيميَّة البشر.

---

(1) لم نقل بهيمة وقلنا بهيمية اتباعًا لأئمة الكُتاب في الفلسفة والأخلاق والأدب كابن جني وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبيعة فقالوا بهيمية وطبيعية حتى أن سيبويه رأس النحاة قد قال أن فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة بأذن الله

وما أخذته عينٌ وهو يزاول أعماله المخيفة، إلا أخذها من خلال ظلالها بريقُ سيف الاجتماع، وهو يلمع في قبضته.

وكان يشعر بسعادة في استنكار ما يرى، وقد وطئ بإخمصيه هَامَ الجرائم وقيَّد بعَقبَيْه العصيانَ والفساد والشرور، وكان يتفجَّجُ نورًا وهو يستأصل ما يستأصل من الفساد والشر.

وقد تجلَّت في تلك النفس الطاهرة العنصر، البشعة المنظرَ، عظمةٌ لا يختلف فيها اثنان.

ولم يَعلق بهذا الرجل المخيف دَنَسٌ ولا طارت حوله دَنِيَّةٌ.

إن الاستقامة والإخلاص وسلامة الفطرة ومحض اليقين وتمثّل الواجب، كلُّ أولئك الفضائل إذا جار بها صاحبها عن قصد السبيل ترآءت لك في صُوَرٍ منكرة، ولكنّها على نُكْرِها ودمامتها لا تزال كاسية بالعظمة.

فإجلالُ تلك الصفات طبيعية من طبائع النفس البشريَّة إن لكل شيء آفة، وآفةُ الفضيلة، العدولُ بها عن القصد.

للمتعصّبِ في دينه وهو في عنفوان فورته فرحٌ شريف النزعة وإن لم يعرف الرحمة، يلازمه ما أدري أي لألاء لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة.

وكَانَ «جافيرُ» وقد بلغَ منها، على حال يرثي لها- وكذلك الجاهل إذا فاز - فما كان لعين أن تستريح إلى ذلك الوجه الذي تجلَّى فيه كلُّ ما يمكن أن يكون في طيّبٍ من خبيث.

***

لم تكن «فانتين» قد لمحتْ «جافير» منذ اليوم الذي انتزعها فيه «مادلين» من يديه انتزاعًا، ولم يقو عقلها المضعوف على إدراك شيء. غير أنها لم تَخْلُ من الشك في أمره لغشيانه مخدعها. وكان أكبرُ ظنها أنه إنما أتى يريدها، فخانها العزم، ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر، وأحسَّت الْحَيْنَ، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحة اليأس: نجنّي منه، فأجابها بصوت يَقْطُرُ سكينة ورقَّة.

اهدئي أنت فإنه إنما جاء يريدني.

ثم التفت إلى «جافير» وقال له: إني لأعلم ما تريد.

وصاح به «جافير». إذًا فهيا.

نطقَها بوحشيّة زحمت في حلقه مخارجَ الأَحْرف، وطمست على معالمها فخرجت وهي بالزئير أشبه منها بالكلام.

ولم يَجْر «جافير» على الطريقة المألوفة فلم يُفِضْ معه في حديث ولم يعمِد إلى إبراز أمر الاستدعاء.

فقد كان يَعُدُّ «جان فلجان» محاربًا خفيًا يُفْلِتُ كلّ من يطارده.

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام، فلبث خمس سنين يجالده ويصارعه فلم يَقْوَ على صرعه، ولم يكن أمر القبض بدءَ ذلك العراك، ولكنه كان الختام - فما زاد على أن قال له: إذا فهيًّا.

قالها ولم يَخْطُ خطوة ولكنَّه ألقى عَلَى «جان فلجان» نظرة كالمِحْجَنِ[1].

تلك النظرة التي اعتاد أن يجذب بها إليه جذبَ العُنف أولئك المنكودين من البائسين.

تلك النظرة التي نفذت إلى نخاع «فانتين» قبل اليوم بشهرين كاملين.

وعند تلك الصيحة فتحت «فانتين» عينيها فرأت «مادلين» بحيث كان، فشَدّ ذلك منها بعْضَ الشيء، ثم أجالت تلك المسكينة نظرًا حائرًا فلم تَرَ في المخدع غير «مادلين» وغير الراهبة، فقام بنفسها أنه لا يريد بتلك الصيحة سواها.

رأت في تلك اللحظة شيئًا غريبًا لم تكن لتراه حتى في عنفوان هذيانها، رأت عينًا[2] من الشرطة يُلبّب[3] شريفًا من سرَوات الناس، والعينُ شامخ الأنف والشريف منكّس الرأس.

فخيّل إليها أن الدنيا قد شمَّرت للزوال.

وكان «جافير» قد أخذ في الحقيقة بتلابيب «جان فلجان» فصرخت «فانتين»: سيدي الشيخ.

---

(1) المحجن آلة يجذب بها الشيء كالخاطوف وغيره. (2) جاسوس.

(3) يأخذ بتلابيبه أو بخناقه أي يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرًا.

فضحك «جافير» حتى بدت نواجذه وقال: ليس هنا مَنْ يُنادى بسيدي الشيخ، فلم يعالج «جان فلجان» أن يزحزح عن خناقه يد «جافير»، ولكنّه قال له: جافير، فقاطعه جافير قائلًا:

قل سيدي المفتش.

فقال له: سيدي إن لي معك كلامًا.

فقال له: ارفع به صوتك فكذلك أُكَلِّمُ.

قال: إنه رجاء.

قال له: اجهر بصوتك كما أمرتك.

قال: إنه رجاء يحسن أن لا يسمعه سواك.

ثم داناه وألقى في أُذنه: أرجئني ثلاثًا أبحثْ فيها عن بنيَّة هذه المسكينة وأدفعْ لأصحاب النزل نفقة إيوائها ولك أن تصحبني إذا شئت.

فقال جافير: أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محمّقًا.

وسقطت تلك الكلمات إلى أذن «فانتين» فاضطربت في سريرها وصاحت: ويلاه أليست بنيّتي هنا كما يزعمون؟ ثم صاحتْ أيتها الأخت أين بنيّتي، وأنت أيها السيد مادلين؟

فضرب جافير برجله وصاح بها، إياك أن تنبسي أيتها الشقيَّة.

أراني اليوم في بلد يُنادى فيه المجرم بألقاب التسويد، وتُكرَم فيه البغيُّ كأنَّها من فُضْلَيات الحرائر.

ثم نظر إلى «فانتين»، ويدهُ تزيد في تضييق الخناق عَلى «جان فالجان» وقال لها: ألم أقل لك إن ليس هنا شيخ ولا سيّد وإنما هنا لصّ مجرم وفاتكٌ أثيم يدعى جان فالجان؟

فاستوت «فانتين» في سريرها وتنقَّلت بنظرها من «جان فالجان»، إلى الراهبة، إلى «جافير»، ثم فتحت فاها تُريغ الكلام فلم يَرم حَلْقُهَا بغير الشخير، ثم اصطكت أسنانا وانبسط ذراعها كأنها غريق يبحث عنَ شيء حوله، ثم هوتْ

على الوسادة فصدم رأسها سنادُ الوساد - وأسلمت على أثر تلك الصدمة الروح.

فوضع «جان فالجان» يده عَلى يد «جافير» وهي ممسكة بطوقه وبسط قبضتها، وكأنها يد طفل ثم قال له: لك الويل، لقد قتلتها.

فصاح به «جافير» دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك المنطق، فإن لم تنطلق معي فليس إلا القيد، وإلا دعوةُ الجند.

وكان في احدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحديد تستريح إليه الراهبات في السهر، فاندفع إليه جان فالجان وانتزع في أقل من رجع البصر سناد الوساد رغم رسوخه في مكانه، وأي شيء يتعصّى على تلك الساعد، ثم اتخذ منه جُنَّة وسلاحًا ولوّح به في وجه «جافير»، فتراجع مذعورًا إلى الباب.

ثم مشى به مشية المطمئن إلى سرير «فانتين» ولما بلغه التفت إلى «جافير» وقال له: أنصح لك ألا تدانيني.

فأوجس «جافير» خيفة، وبدا له أن يذهب لدعوة الجند لكنَّه خشى أن يجد «جان فالجان» نُهْزَةً للفرار فأسند ظهره إلى عُضَادة الباب، ونظرُه مصوَّب إلى غريمه.

فارتفق «جان فالجان» على قمة السناد وجعل يتأمل «فانتين» وهي هامدة، ولبث غارقًا في تأملاته، وما كان ليُفَكّرَ في شيء من أشياء هذه الحياة، غير أنك كنت تقرأ في معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة.

ثم انحنى فوقها وجعل يسارُّها- تُرى أي كلام كان يلقيه عليها؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل المُمْتَحَنُ لتلك المرأة الميّتة؟

لم يَقَعْ ما قال في أُذنِ الحيّ فهل وقع في أذن الميت؟!

وما يدريك لعل في الأوهام المؤثرة شيئًا من الحقائق السامية.

روت الراهبةُ، «سامبليس»، تلكَ التي شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز في ما تروى - أنها قد رأت رأي العين أثناء تلك المسارَّة بسمة قد خَطَفَت على فم الميت وبريقًا قد لمعَ في تلك الأحداق، التي غمرتها دهشة أهل القبور.

ثم أخذ في يديه رأس «فانتين» ووضعه برفق على الوسادة كما تضع الأم رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها، وقد علا وجهها إشراقٌ سماويّ - والموتُ انتقال من عالم الظلمة إلى عالم النور.

ولما فرغَ من شأنها ركع أمام سَريرها وتناولَ يدها، فقبَّلها ثم التفَت إلى «جافير» وقال له:: دونك وما تريد!

سيق «مادلين» إلى سجن المدينة، وفشا نبأُ اعتقاله في أنحائها، فأقام الناسُ وأقعدهم، ومشى بعضهم إلى بعض يتساءلون، وانحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق، ولم يَنْشبُوا أن نَسُوا حتى عوارفَه، وقطعوا بإجرامه قبل أن يقع إليهم تفصيل ذلك الحادث «بآراس».

فمضى النهارُ وما تكاد تسمع في مناحي المدينة إلا هذا اللغط.

ألا تدري؟ - أنه مجرم سُرِّح بعد العقاب - من هو؟ - شيخ البلد - ويحك ما تقول؟ السيد مادلين!- نعم - لا تقل هذا - إنه لم يكن يدعى مادلين - إن له اسمًا آخر، لله ما أشنعه، لقد كان يدعى ما أدري «بيجان»! «جووان»!

وهل اعتقل؟

نعم.

أفي السجن؟

في سجن المدينة ويُتوقع نقله وإشخاصه إلى دار المحكمة ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعُبَّد في عهده الأول.

إني لا أسكن إلى هذا النبأ، فقد كان الرجل طيبًا كاملًا وكان من الزاهدين، ألم تر كيف تأبَّى على وسام الشرف يوم أنعم به عليه، ألم تقع عليه عينك وهو يوالي إسداء الحسنات؟ فما سأله سائل إلا أعطاه، ولا مرَّ بمُعدم إلا نفحه ولا بمحزون إلا واساه.

لقد كنتُ ألمح من وراء تلك الأعمال ماضيًا غير محمود.

وقالت عجوز من المشتركين[1] في «علم[2] السلام»: لم يُثِرْ هذا النبأ في نفسي حزنًا على ذلك الرجل- إن في هذا لبلاغًا لأولئك «البونابرتيين[3]».

وهكذا قد انمحى بين عشية وضحاها شبحُ «مادلين» من الأذهان ولم يبق على عهده في المدينة كلها إلا ثلاثةٌ أو أربعة منهم بوّابته القديمة.

---

(1) قلنا من المشتركين ولم نقل من المشتركات اتباعًا للأفصح قال الله تعالى: «وكانت من القانتين».

(2) «علم السلام» جريدة يومية كانت تظهر في ذلك العهد.

(3) نسبة إلى بونابرت «نابليون».

وكانت قد دخلتْ عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها كاسفة البال تفكّر فيما نزل بذلك الرجل الكريم.

وقد أقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه، ولم يبق في الدار غير الراهبة «بربيتي» وأختها «سامبليس» كانتا تتناوبان السهر على تلك الميتة.

وعند الساعة التي اعتاد فيها «مادلين» العودة إلى داره قامت البوابة وأخرجت من دَرْج لها مفتاح باب مخدعه وعلّقته في مسمار مرشوق بالحائط ونصبت الشمعدان في مكانه المعهود، كما كانت تفعل في كل مساء، ثم أخذت في التفكير.

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الإرادة.

ومرَّ بها ساعتان وهي على تلك الحال ثم عادت إلى نفسها ولم تنشب أن صاحت.

إلهي من ذا الذي علّق هنا هذا المفتاح.

ووقع في نفس هذه اللحظة أن فُتح زجاج النافذة. وامتدت يدٌ من فرجته فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان.

فرفعت عينيها وهي مفتوحة الفم وقد وقفت في حلقها صيحةٌ.

إنها تعرف تلك اليد، ولا تنكر تلك الذراع، ولم يكن كمُّ ذلك الرداء عنها بالغريب.

إنه السيد «مادلين» - فمرَّ بها بضع ثوان وهي معقودة اللسان «كما حكت عن نفسها» وهي تروي ذلك الحادث - ثم انحلت عقدته فصاحت: سيدي الشيخ لقد ظننتك... ثم أمسكت عن الكلام كراهةَ أن يبدر منها ما يكون فيه تحقير لذلك الرجل الذي كان لا يزال عظيمًا في نفسها.

فأسرع مادلين وأتم لها جملتها فقال: - في السجن.

نعم كنتُ فيه فكسرت إحدى عوارض النافذة وهبطتُ من على سطح هناك، وها أنذا كما ترين أعود إلى مخدعي، فاذهبي أنت إلى الراهبة «سامبليس» وقولي لها: إني في حاجة إليها.

فانطلقت العجوز تعدو، ولم يوصها بشيء، فقد كان يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه.

ولا يعلم خلقٌ كيف خَلَصَ هذا الرجل إلى ذلك الفناء وهو لم يُعْمِل في الباب الكبير مفتاحًا.

لقد كان يكون معه المفتاحُ «القلَّابة[1]» الذي يستخدم لفتح أبواب الجوانب، لكن من الحتم أن يُفتش السجين عند دخوله في السجن ويُنزع منه ما يحمل من أداة، فهل عَمِيَ الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح - لقد لبث هذا الأمر غامضًا؟

صعدَ في الدرج إلى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا، وفتح باب المخدع بلا تحرُّج فصَرَّ الباب صريرًا ولكنه لم يباله، وولج في الظلام.

وجعل يتقرَّى بيديه ويلتمَّس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم إغلاقها، ثم عاد فحمل الشمعدان وأنار المخدع وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيطة فقد كانت النافذة مُطلة على الطريق.

ثم ألقى نظرة عَجْلى على ما في ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غيرُ قطعة الغلام وقد اسودَّت من النار وغيرُ بقايا عصاه.

فأخذ بيضاء خطّ فيها هذه الكلمات:

هاكُم بقية عصاي، وقطعة الغلام الفضية التي ذكرتها أمام المحكمة.

ثم لفّهما في تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عين الداخل.

ولفّ بقايا الشمعدانين في خِرْقة وجعل يحزمها وهو أهدأ ما يكون نفسًا، وكان يمضغ كسرة من الخبز الأسود ولعله حملها معه حين فرَّ من السجن، وقد وجد منها فُتَاتًا على بلاط المخدع، وجَدَهُ المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اختفائه.

طُرِق عليه البابُ، فأُذن للطارق، فدخلت الراهبة«سامبليس» وهي صفراء اللون محمرَّة الحدق.

ولا يسلم المرء وإن كان جلْدًا صبورًا من أن يتسرب إليه الوهَنُ أمام بأْس الأقضية والمقادير. وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردَّت الراهبة إلى طبعها من الضعف والخور فجزعت وبكت، وكذلك تبكي النساء.

فمدَّ لها «جان فالجان» يده بورقة وقال لها: أيتها الأخت أرجو أن تحملي هذه

---

(1) القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذي يفتح جميع الأبوا ب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد. لكلمة قلابة تفيد أنها تقلب ألسنة جميع الأقفال.

الورقة إلى القَسّ، وكانت الورقة مطوية، فألقت عليها الراهبة نظرة، فقال لها: لك أن تقرئي ما فيها.

فقرأت - أرجو سيدي القَسّ أن يقوم على ما خلَّفته هنا من المال، وأن يُنفق على دفن المرأة التي قضت في هذا اليوم، وأن يرصُد ما تبقّى للفقراء والمساكين.

حاولت الراهبة أن تنطق فخانها النطق ثم تمكنت بعد الْجَهْد من أن تقول:

ألا يريدُ سيدي الشيخ أن يتزوَّد من تلك البائسة بنظرة الوداع.

فأجاب «مادلين» إنهم على أثري وربما أدركوني هناك فعكروا عليها صفو نومها الأبديّ!

وما هو إلا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع أقدام على الدّرج.

وسرى إليهم صوت البوَّابة وهي تقول:

أقسم بالله أن أحدًا لم يدخل، وأنني لم أرِمْ مكاني من الباب بياضَ النهار وسوادَ الليل - وسمعوا صوت رجل يقول: وما هذا النور بالمخدع، فعرفوا منه صوت «جافير».

وكان باب المخدع يوارَى عند فتحه الزاويةَ اليمنى من ذلك المكان فأطفأ «جان فالجان» شمعته واختبأ في تلك الزاوية.

وسقطت الراهبة على ركبتيها بجوار المنضدة- وفُتِحَ الباب وظهر «جافير» على العتبة- وجعلت الراهبة تصلي وكانت قد نصبت

شمعتها على المدفأة، فلمح «جافير» على ضوئها الضئيل تلك المصليَّة، فَسمُرَ في مكانه.

و«جافير» كما تعهد، بما بُني عليه طبعُه وبما كَسَبَهُ من البيئة التي يعيش فيها والمضطرب الذي يتقلَّب فيه، كان على جانب عظيم من إكبار السلطة في شتّى مظاهرها، فهو يُعَظِمُ سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين، ويُنْزِل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ والراهبة منزلة المعصوم من الخطيئة.

تلك أرواح مُسَوَّرَةٌ في هذه الدنيا بسور له باب واحد، لا يفتح إلا لتَخْرُجَ منه كلمة حقّ.

ولما لمح «جافير» الرهبة همَّ عند الوهْلَة الأولى بالانصراف، ثم ذكر واجبَ مهنته فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم أنها امرأةٌ صِدْقٍ، ومكانُها من نفسه مكانُها.

أيتها الأخت:

هل أنت وحدك في هذا المخدع؟

فرفعت عينها وقالت:

نعم.

فقال جافير:

أعذريني على هذا الإلحاح.

ألَمْ ترَىْ رجلًا في هذه الليلة فإني أتَعقَّب مجرمًا يدعى «جان فالجان» قد فرَّ من السجن؟

قالت:

لا.

فانحنى «جافير» وسلم وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق ما يكون.

كذبت الراهبة ثم كذبت:

كذبت مرتين على التعاقب.

إيه أيتها العذراء الطاهرة. إنك لم تكوني من أبناء دنيانا.

وقد مرَّ بك سنون وأنت تلابسين الطواهر من أخواتك العذارى، والأطهار من إخوتك الملائك، ولسوف تُسألين عما جرى على لسانك من الكذب ولكن في دار النعيم.»

وبعد هذا الحادث بساعة أو شَيْعها[1] رُؤِىَ غير رجل يُهرول بين الشجر وقد ركب طريق باريس ولم يكن «جان فالجان».

(1) قريبًا منها.

وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به، ولعلّه رداء العامل الذي مات في المصنع منذ أيام، وقد آن أن نُشيّعَ «فانتين» بكلمة.

إن لنا أُمًّا واحدة.

هي الأرض.

وقد رجعوا «فانتين» إلى أمها.

وقال القَسُّ:

ليس من البِرّ أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن تلك البغيّ، ولكنَّ البرَّ أن أرصُده للنفقة على الفقراء والمساكين، ثم تجوّز[1] في دفن تلك البائسة وألقى بها في مقابر الصدقة، فاختلطت عظامها بذلك الرفات: رفات من سبقها ومن يلحقها من الأموات.

وغابت في غياهب تلك الحفرة التي لم تكن لأحد وهي لكل أحد.

وذهَبتْ روحها إلى مقرّها ومستودعها، وسبحان من يعلم وحده أين ذلك المستقر.

وهكذا أنيمتْ «فانتين» في ظلمة تلك الحفرة وانطوت في رَماد تلك الأمشاج، فكان لحدها أشبه شيء بسريرها.

(1) تساهل.